الإصدار: 27



أمام الحكمة

رواية

إسهام

عبد الباقي يوسف





إمام الحكمــة

- رواية -

عبد الباقي يوسف

الإصدار: 27 (مارس 2010م / ربيع الأول 1431هـ)



عبد الباقي يوسف:

من مواليد سوريا، يعرف بإنتاجه الروائي المتنوع، ويشغل عضوية اتحاد الكتاب العرب، وجمعية القصة والرواية السورية.

له أعمال فكرية وروائية كثيرة منها: «فقة المعرفة» (في ثلاثة أجزاء)، و «غيوم من الشرق»، و «خلف الجدار»، و«طريقة للحياة» ... وغيرها.



نهـر متعـدد ... متجــدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) - فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

مارس **2010**م / ربيع الأول **1431** هـ

الآراء المنشورة في هذه السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأي الوزارة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: **www.islam.gov.kw**

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: **2010 / 066**

ردمك: **978-99906-993-2-6**

فهرس المحتويات



تصدير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، الذي امتدح الحكمة في كتابه الحكيم، والصلاة والسلام على محمد النبي الكريم، الذي كان سنته حكمة تالية للكتاب ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمر الإنسانية بتجارب وخبرات ، وتسعى إلى استخلاص العبر والعظات، ثم تدونها في شكل أقوال وأمثال وحكم يسهل تداولها ونقلها بين الأجيال ، وتكون مادة مساعدة على حسن التربية والتوجيه.

ويمثل الأدب العربي ، قديما وحديثا، مصدرا من مصادر تلك الحكمة ، كما اشتهر، عند المسلمين من خلال آيات معدودات في سورة لقمان، وجود شخصية تمتعت بقول الحكمة وممارستها، وهي شخصية لقمان الحكيم.

وقد جاءت تلك الحكم التي أوصى بها لقمان ابنه جامعة لخصال الصلاح في حياة الإنسان ، في تصوراته ومعتقداته، وفي علاقته بالله ، سبحانه وتعالى، وبوالديه، وفي علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، وفي التحلي بالقيم الأخلاقية التي ترفع من قدر الإنسان في محيطه الاجتماعي.

وقد استوعبت الكتب القديمة العديد من الحكم التي تنسب إلى لقمان الحكيم ، وهي تؤول، جميعها، إلى معنى وضع الشيء في محله اللائق به، سواء كان هذا «الشيء»، شعورا أو خاطرا أو كلمة أو موقفا أو سلوكا.

وقد وفق الروائي «عبد الباقي يوسف» في أن يجمع شتات تلك الحكم ، الممتدة في الزمان والمكان، وأن يصوغها في قالب روائي ممتع ومفيد، تتحول، عند من يتأملها ويحسن الإصغاء إليها، إلى نبراس يهديه في مدلهمات الخطوب والمواقف والآراء، وتجعل له لسان صدق وأمانة وأخوة وتقدير وحب للخير والجمال ، وسعي إلى خدمة الإنسان من حيث هو إنسان ، بعيدا عن التصنيفات التي أحدثت شروخا في الكينونة الإنسانية التي أراد لها الله سبحانه وتعالى أن تكون سالكة سبيل التعارف والتعاون والتواصل والتعايش

واحترام التنوع باعتباره آية من آيات الله الحكيم في صنعه الحكيم.

والرواية ، بغلبة أسلوب الحكمة عليها، تريد أن تجعل الحكمة شخصية تمشي بين باقي الشخصيات، ورؤية تحكم الإنسان في علاقته بذاته وبالآخرين من حوله، بأسرته ومجتمعه، في الجوانب النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، إنها تبشر بمشروع الإنسان الحكمي ، بعد أن تهاوت فلسفات الإنسان النفعي ، والإنسان القبلي، والإنسان الطائفي، والإنسان القومي، والإنسان الأبيض مقابل الإنسان الأسود، والإنسان الإيديولوجي، والإنسان البراجماتي، والإنسان الميكيافيلي، وغيرها من الأنماط الإنسانية التي أحدثت آثارا سلبية في الرصيد الحضاري للأمم والشعوب ، وكانت مجالا خصبا لإبداعات الروائيين في العالم .

ومن أبرز الإشكالات التي تثيرها رواية «إمام الحكمة» حدود التاريخي والخيالي في رصد سيرة «لقمان» الحكيم ، ولعل هذا لايرتبط بهذه الرواية فقط، بل إن النقد الأدبي ، قد أثارها، ويثيرها، مع كل تجربة سردية تستدعي التاريخ ، وتجعله مادتها الروائية من مثل ما أنجزه الكاتب جرجي زيدان في رواياته التاريخية، ومثل ما قام به القاص محمد عبد الحليم عبد الله في روايته «الباحث عن الحقيقة»، ومثل الإنجاز النوعي للدكتور نجيب الكيلاني في العديد من أعماله الروائية ، من مثل «نور الله» و«قاتل حمزة» و«عمر يظهر في القدس».

وإذا كانت بعض الروايات بالغت في الاتكاء على الخيالي إلى درجة الإخلال بالتاريخي أو تجاوزه، فإن الروائي عبد الباقي يوسف ظل محتكما إلى ما قدمته كتب التاريخ عن شخصية لقمان، ولم يعمل الخيال إلا في حدوده الجمالية والأدبية التي تضفي على لوحة التاريخ أبعادا تقوي من واقعيته ، وتجعله أكثر جذبا للمتلقي، وأقدر على تحقيق نسبة عالية من الإقناع .

إن أطروحة رواية « إمام الحكمة» تتعلق بأن يتحول الإنسان نفسه إلى مرآة لنفسه، يرى من خلالها علاقاته وسلوكاته ومواقفه ، ويعيد اكتشاف مفهوم الحياة والوجود ، ويستثمر طاقات الذكاء والخبرة والإرادة التي وهبها اللّه إياه ، ليكون متحكما في نفسه ومحيطه ، لامحكوما بهما، قائدا لهما لامقودا من قبلهما، فيتولد عنده إحساس جديد بنفسه ووظيفته ومركزه في الكون والحياة، وعلاقته باللّه ، خالقه ومبدعه، وبالإنسان والنبات والجماد، إحساس في طعم الحياة نفسها في جدتها وتوازنها ومعادلاتها ...

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية أن تقدم هذه الرواية للجمهور الكريم، إسهاما منها في التذكير بأهمية الحكمة في جميع مناحي الحياة، تلك الحكمة التي ورد امتداحها في القرآن الكريم، وجاءت سنة النبي وسيرته تمثيلا واقعيا لها .

واللّه من وراء القصد ، وهو المؤتي الحكمة من يشاء... ومن يؤتى الحكمة، فقد أوتي خيرا كثيرا...



مقدمة

تتيح لنا صفحات هذه الرواية الولوج إلى سحرية إيقاع الحياة في الجانب الشرقي من الكرة الأرضية ، فتعود بنا إلى أهمية دور الحكمة في حياة المجتمعات البشرية ، من خلال تناول سيرة حياة أحد أهم أقطاب الحكمة في تاريخ البشرية .

هذا الرجل الذي احتفت به الكتب السماوية التي نزلت بعده من خلال ذكر ما قاله من حكمة .

ولأهمية مكانته ، وتكريما لِما ترك من حكمة، فقد ذكره الله تعالى بالاسم في القرآن الكريم ، وذكر بعض حكمته وهو يعظ ابنه ، وحملت سورة من القرآن الكريم اسمه .

كما أنه ترك أثرا بالغا في تاريخ الآداب البشرية بمختلف أجناسها وألوانها عبر العصور .

هذه الرواية تسرد ولأول مرة - روائيا - وقائع حياة حكيم الشرق الأكبر (لقمان الحكيم) ، من مرحلة العبودية، إلى أن يعتقه سيده تكريما لحكمته عندما طلب إليه أن يذبح شاة ويقدم له أطيب مضغتين فيها .

ثم إلى مرحلة الحرية ، والزواج ، والفجيعة الكبرى بموت الأولاد والزوجة، والترحال في مناكب الأرض .

كما أن هذا السرد الروائي يتضمن نظرة هذا الحكيم إلى روح العلاقة بين الإنسان والحكمة ، مفهومه للدنيا ، للآخرة ، للمرأة ، للزواج ، للأبوة ، للمصائب ، للعلاقات الإنسانية ، للمال ، للحرية .

ويتضمن تلك المرحلة الانتقالية الكبرى في حياته عندما سمع نداء يقول:

يالقمان ، هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس

بالحق؟

ينهض جاثيا على ركبتيه وقد تلبسته حالة عظمى من الخشوع : إن خيرني ربي ، قبلت العافية ، ولم أقبل البلاء ، وإن هو عزم علي ، فسمعا وطاعة، فإني أعلم إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني .

نتعرف من خلال وجود هذا الشخص في العالم ذات حقبة تاريخية أن الأزمات التي تمر بها المجتمعات البشرية هي أزمات وجود رجال حكماء، وأزمات حكمة ، وأن الحكمة يمكن لها أن تقدم الكثير للإنسان إذا استعان بها ، وهي ترتقي بالإنسان إلى درجات متقدمة من النضج الإنساني .

يتضمن هذا السرد جل ما ترك هذا الرجل من حكمة ، وموعظة ، وأمثال، إضافة إلى لقائه بالنبي داود ، وحوار الحكمة والنبوة .



الفصل الأول

يمضي العبد الأسود ، قصير القامة ، مجدع الأنف ، غليظ الشفتين ، منفر الملامح ، مشقق الكعبين ، ثقيل الخطو ، هادئ الروع .

يمضي بين رفقائه العبيد بثقة سيّد ، يذهب معهم باكرا إلى جمع الحطب، يشاركهم مشاق كل عمل يكِلُهُ إليهم ولي نعمتهم ، يرقد معهم في حجرة واحدة ، يستفيق معهم في حجرة واحدة ، يفتح عينيه على سحناتهم ، يغمضهما على هيئاتهم .

يتناول معهم الطعام والشراب ، يجالسهم ، يسامرهم ، يفرح لفرحهم، يحزن لحزنهم .

غير أنه لا يُشعرهم برهة واحدة أنه ينتمي إليهم ، أنه واحد منهم سواء بأسلوب حديثه ، أو بطريقة نظراته ، أو بشكل إصغائه العميق لأحاديثهم الجادة منها والهزلية ، أو بترتيبه لمسالك الوقت رغم أنه لايملك من أمر وقته حرية ، أو بما يُبدر من أفعال ، أوبصمته وسكينته ،أو بخصوصية مفهومه للحياة .

فلم يسبق لعبد قط أن لمحه يبصق ،

لم يره أحد بحالة استغراق في الضحك ،

أو يعيب على كائن .

لم تسمعه أذن عبد يتنحنح

أو يرفع صوته .

لم تره عين قط على بول ،

على غائط ،

على اغتسال .

إنه شخص جاد في كل حركة تبدر منه ،

كل كلمة تخرج من فيه ،

كل نظرة تصوّبها عيناه لأحد .

يتحاشى ما أمكنه أن يشاركهم اللعب والمزاح في أوقات الفراغ ، مفضلاً العزلة والصمت وطول التفكير .

حتى إن البعض بات يهابه عندما يسعى إلى التحدث إليه ، ينتابه شعور بأنه سوف يتحدث إلى سيّد ، لا إلى عبد يمضي معه كل الوقت .

يقول له العبيد بلهجة عتاب: ما بالك لا تشاركنا اللهو ، ما بالك لا تشبهنا ، لا تقلدنا بشيء ، ألست مملوكا مثلنا ، أم هيأ لك تفكيرك الطويل بأنك حرّ تعيش خطأ بين عبيد ، ثم ألا تحمد ربك - وأنت كثير الذكر له- بأن سيّدنا الفاضل قد ابتاعك بثلاثين مثقالاً من ذهب رغم ما أنت عليه ، وضمّك إلينا ؟!

يصوّب عينيه إليهم مليا ..

يتأمل ملامحهم ،

حدقاتهم ،

وجوههم وجهاً وجهاً ،

ويطول به صمت وقور دون أن تلفظ شفتاه كلمة واحدة لأنه يرى أن أي كلمة تبدر منه قد تخطئ طريقها إلى أسماعهم ، وتضعه في موقع المتهم الذي يدافع عن جنحة ارتكبها ، وتضعهم في موقع القاضي الذي يقاضيه بهذه الجنحة ، فتكون هذه الكلمة أصلا لإفساد رابطة الود بينه وبينهم ،

هذه الرابطة التي يحرص على بقائها كل الحرص ، بيد أنه من جهة أخرى ، وحتى لا يُشعرهم أنه يأبى فكرة التحدث إليهم ، يتحدث معهم في اتجاهات أخرى ، فيقول إن عليهم الانتباه جيدا بأنهم ليسوا أقل شأنا من

سيدهم بعبادة اللّه ، فهم وإن كانوا عبيد سيدهم ، عليهم ألاّ يغفلوا طرفة عين بأنهم عباد اللّه .. شأنهم في ذلك عند اللّه شأن سيدهم الذي لا يملك ألاّ يكون مثلهم عبدا للّه رب الأحرار والعبيد .

هذا الحديث يجعلهم يكنّون له مزيداً من التقدير ، ويجعلهم أكثر ثقة بحكمته ، ورزانته ، وبعد لحظات يعتذرون بطريقة غير مباشرة عن ظنهم بأنه ربما تعالى عنهم .

إنه (لقمانهم) الذي ألفوه على هذا الوجه من الحياة ، لم يتبدل فيه شيء منذ اليوم الأول الذي حل فيه بينهم .

في دجى الليل يتقلّب جسده بين حين وحين في فراش التأمل الذي هو فراش لفسحة الشرود ، أكثر مما هو فراش لفسحة الرقود ، يطول به شرود عميق وسط نوم العبيد وشخيرهم .

يتأمل معالم كل حركة قامت بها أعضاؤه ،

كل كلمة نطقتها شفتاه ،

كل كلمة سمعتها أذناه ،

حتى إنه يعيد ملامح النظرات التي نظرها ،

ملامح النظرات التي نُظرت إليه .

ثم يتفكّر من زاوية أخرى في جدوى وجوده ككائن حي في ظاهرة الحياة متمتماً في نفسه :

لقمان هو الاسم الذي يقدمك للآخرين ياصاحبي

وأنت تقدم اسم لقمان لهم .

على قدر ما تحسن تقديم اسمك إلى الآخرين ، فإنه يحسن تقديمك لهم.

هذي الحروف الخمسة تنبض في ثناياها نبضات قلبك ،

تسبح في سعة فضاءاتها شذرات تأملك ،

تطوف ظلمة أوديتها وأضواء دروبها معالم خطواتك .

إنك يا لقمان ابن أنوار وظلمة هذي الحروف ، وهي ابنة كل حركة من حركاتك ،

كل نفس من أنفاسك ،

كل حاسة من حواسك ،

كل هنيهة من شرودك .

كل خـَلق أوتي اسما يقدّمه ، وكل اسم أوتي خلقاً يمثّله

كل خلق يبدأ حياته باسمه ، ويبدأ اسمه بحياته .

عندما شاء الله أن ينفخ في صلصال أول خليفة في أرضه ، شاء أن يكرم هذه الخليفة بهدية الخلود .

حضور اسمك هو حضور غيابك

غياب اسمك هو غياب حضورك .

عندما تحسن إلى اسمك ، يحسن اسمك إليك .

يسيء إليك اسمك ، عندما تسيء إليه .

كل ملاك أهداه الله اسماً ...

كل جنّي أهداه الله اسماً ...

كل إنسان أهداه الله اسماً ...

كل نبات أهداه الله اسماً ...

كل جماد أهداه الله اسماً ...

كل حيوان أهداه الله اسماً...

وإن نظرت إليك يا لقمان ،، ترى :

كل عضو فيك له اسم ...

كل شهقة تشهقها لها اسم ...

كل زفرة تزفرها لها اسم ...

كل نظرة عين تنظرها لها اسم...

كل خطوة تخطوها لها اسم...

كل نبرة صوت تنبرها لها اسم ...

كل جلسة تجلسها لها اسم...

كل وقفة تقفها لها اسم...

كل نوم تنامه له اسم .

وانظر يا لقمان :

كل طير يطير يملك اسماً ...

كل دابة تدب تملك اسماً ...

كل زاحف يزحف يملك اسماً...

كل زهرة تزهر تملك اسماً ...

كل شجرة تنمو تملك اسماً ...

كل نبتة تنبت تملك اسماً ...

كل بحر يبحر له اسم ...

كل نهر ينهر له اسم ...

كل جبل يجبل له اسم ...

كل أرض تأرض لها اسم ...

يتوقف قليلاً عن التفكير ، يتقلّب جسده في الفراش ،

يسعى إلى النوم ، وقد أثقل رأسه إرهاق فكري ، لكنه ما يلبث أن يستأنف في نفسه :

أنظر يا لقمان إلى الزمن :

كل وقت يحمل اسماً ...

أنظر في البرهة ...، في الهنيهة ...، في اللحظة ...، في الدقيقة ...، في الساعة ...، في اليوم ...، في الأسبوع ...، في الشهر ...، في الفصل ...، في السنة ...، في العقد ...، في القرن ...

ثم انظر إلى الأرقام يا لقمان :

كل رقم يتمتع باسم مختلف عن أخيه...

كل رقم له خصوصية ، له ميزة ...

أنظر إلى رحابة الفضاء يا لقمان :

كل نجمة تتمتع باسم ...

كل طبقة غيم تتمتع باسم ...

كل كوكب يتمتع باسم ...

كل هنيهة ظلام تتمتع باسم ...

كل هنيهة ضوء تتمتع باسم ...

هذا غنى الله يا لقمان ، فماذا لدى أغنياء الأرض ، إن أغنى أهل الأرض هو أكثر هم فقرا إلى غنى الله .

*   *   *



الفصل الثاني

منذ أن وطئت قدماه هذا المكان ، اعتاد بين حين وحين أن يدعوه سيده إلى مجلسه ، يطلب إليه أن يتحدث له عن مفهومه للحياة ، عن نظرته إلى الإنسان الذي يتسلسل عبر الزمن ، عن علاقة البشر بالله ، يطلب إليه أن يتوسع ـ في حديثه عن الله ، ثم يباغته بأسئلة مباشرة ، تحمل إليه شيئا من إحراج .

أحيانا يكرمه ، وأحيانا لا يقدّم له حتى بسمة ، يخرج من مجلسه وهو يجر خطاه شبه مطرود .

عندما يكون مستاء ـ في حالة نفسية بالغة السوء ، اعتاد أن يتحدث معه بعبوس وكأنه يشاجره ، واعتاد أن يجيبه بكلمات حذرة مختصرة على قدر سؤاله ، بيد أنه رغم هذه اللهجة الصارمة ، وهذا العبوس ينتابه إحساس بأن سيده يوقره ، وأنه يطلب الحديث إليه عندما يكون مضطربا ، فيشعر عند ذاك بأن عباراته تخفف من اضطراب سيده الذي يتخفّى وراء ذلك باللهجة الصارمة ، وعبوس قسمات الوجه .

من جهة أخرى يمتلئ شعورا بأنه يخبر الحياة أكثر مما يخبرها ، وأن حاجة السيد إليه لهي أكبر من حاجته إلى سيده ، فهو يقدم له ما لايمكن لأحد من العبيد أن يقدمه إليه ، ولايمكن لنفسه أن تقدمه ، إنه يعرف أكثر مما يعرف ، ويفقه أكثر مما يفقه ، ويستطيع استيعاب الأحداث بنضج وحكمة أعلى ، ولذلك لا يخفى عنه ذاك الإحساس الذي يظهر ـ في سمات وجه الرجل عندما يطلب إليه أن يأتي ليخفّف عنه ألما روحيا استبدّ به، أو يخفف عنه من عاقبة مكروه أصابه ، وينجح ـ في هذه المهمة ، حتى إن الرجل ينتابه إحساس بأن ما وقع كان عليه أن يقع ، فيحمد الله على تلك الواقعة ونفحات النشوة تسري ـ في أوصاله ، ينظر إلى لقمان بتبجيل وهو يزداد رفعة له .

ينتابه إحساس ـ في تلك اللحظة أن سيده يدرك جيدا أن ما لديه لهو خير

من كل ما يملك من ثراء ، وأنه وقت الشدة ينفع أكثر من كل ما يملك ليس من أموال وعبيد فقط ، بل من حرية أيضا ، هذه الحرية التي لايملكها هذا الرجل الغني الذي يقف قبالته ويسدي إليه النصح والموعظة وبيان الحديث.

كما اعتاد لقمان سابقاً ، وقف بين يدَي سيده الذي أجلسه ، ثم بعد هنيهة جعل الخدم يقدّمون له فاكهة ، ثم بعد ساعة من جلوس وصمت تزحلقت من حنجرته نبرات متعبة :

ما الذي تراه ولاأراه في هذه الدنيا يا لقمان ؟

أدرك أن سيده يمر بحالة متقدمة من القلق على الدنيا ، غدا يتأمل ملامح وجهه ملياً وكأنه يقرأ صفحات في قسمات المحيا .

بعد انتظار من السيد الذي يترقب ما سيقول ،

مد يده إلى الفاكهة وبات يأكل كأن لا أحد غيره في المجلس ، يأكل إلى أن يفرغ ، ثم يغرق في صمت كرة أخرى .

يعيد إليه سيده دَهِشا ذات السؤال بلهجة تُشعره بأنه أمام حكيم روحي ، فيجيب وهو يتفرّس فيه بنظرات ثاقبة : إن الدنيا يا مولاي قليل .

يتمتم هازا رأسه نحو الأسفل : نعم يالقمان ، قليل .

– : وعمرك فيها قليل من قليل ،

– : قليل من قليل

ثم صمت حينا ليردف : وقد بقي قليل من قليل القليل .

أخذ السيد ينظر إليه بوقار، وكأن رعدا هبط عليه ، فاستأنف وهو مايزال ينظر إليه بفراسة ثاقبة : بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا .

ثم مالبث أن زاد :

ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا .

جعل الرجل يهز رأسه وهو مايزال يحدجه بحدقتي عينيه ، بيد أن لقماناً غيّر وجهة نظره إلى الخارج من خلال نافذة مشرعة على سعة الأرض ، وهي في فصل الخريف ، ثم ما لبث أن استأنف زاحفا بنظره إلى رحابة الأرض :

إنك يا مولاي قد استدبرت الدنيا من يوم نزلتها ، واستقبلت الآخرة ، فأنت إلى دار تقرب منها أقرب من دار تتباعد عنها .

قال سيده وقد هبّ واقفا على قدميه : أحسنت يالقمان .

استأنف يقول بثقته المعهودة :

الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها ناس كثر .

قال الرجل من فوره : فما العمل يالقمان ؟

قال وكأنه يستأنف حديثه ، ولايجيب عن السؤال الدخيل : فاجعل سفينتك فيها تقوى الله .

ثم بعد لحظات صمت ، وهو مايزال واقفا بمحاذاة الشرفة ، والسيد يقف خلفه وجلاً :

والأعمال الصالحة بضاعتك التي تحمل فيها .

ثم بعد حين آخر من الصمت ، والرجل يتلقى الكلمات من فيه كأنه يتلقى حبات لؤلؤ : والحرص عليها ربحك ،

- نعم

- والأيام مَوْجُهَا ،

- نعم

- وكتاب الله دليلها ،

- أحسنت يالقمان

- وردّ النفس عن الهوى حبالها ،

- بوركت يالقمان

- والموت ساحلها ،

- نعم

- والقيامة أرض المتجر التي تخرج إليها ،

- نعم

- والله مالكها .

- صدقت يا لقمان وأجدت .

قال ذلك وطال به سكون هادئ ، وكأنه كان يعظ نفسه في خلوة ، وللتو أدرك وجود شخص في المكان .

استمر به السكون ، وهو بين تارة وأختها يلقي نظرة إلى ملامح سيده التي أخذت تستكين بعد ثورة الاحتقان التي كانت تجتاحها ، وغدت عيناه تفيضان برقيق الدمع ، غدت ركبتاه تصطكان ، وكأنه يستأذن العبد حتى يعود إلى مجلسه ، ويدعوه كذلك إلى الجلوس .

أدرك لقمان معنى وأهمية أن يتحدث إلى شخص طلب منه هذا الحديث، وأدرك قيمة ما أوتي من معرفة يمكن أن يعالج بها هذا الشخص الذي يشعر نحوه بتقدير جم ، فهو مالكه ، وهو الذي يعيله ، فجعل يخفض من نبرة صوته ، ويتمتم بغصّة اعتلت حنجرته ، وقد دنا منه ،

ماسكاً يده ليعيده إلى مجلسه .

رفض الرجل ذلك ، وهو يدعوه إلى الجلوس قبله ، فاستجاب لقمان حتى استويا في الجلوس معاً طاعة منه لسيده ، وعندئذ أردف يقول : لا تركن إلى الدنيا يا مولاي .

قال الرجل بنبرات مستكينة : نعم يالقمان :

– ولا تشغل قلبك بحبها ، فإنك لم تُخلق لها ، وما خلق الله خلقا أهون عليه منها .

قال وقد خفض رأسه ، وهو يغالب الدموع التي تنساب من عينيه:

– كيف أرى إلى ذلك سبيلا يا لقمان ؟

– عندما تدرك بأن الله تعالى لم يجعل نعمتها ثوابا للمطيعين ، ولم يجعل بلاها عقوبة للعاصين .

رفع الرجل رأسه ثانية ، وغدا ينظر إليه ، ويحدّثه بهدوء كأنما يحدّث كبير القوم : حدّثني يا لقمان ، فإن نفسي والله لم تسترح لحديث امرئ قط كما استراحت لبلاغة حديثك .

خفق قلب لقمان نشوة ، وهو يشعر بزهو لأنه أدرك بأنها إشارة أولى من إشارات مقدرته على تقديم شيء مخفف إلى شخص مضطرب لجأ إليه ، دون أن يعنيه موقع هذا الشخص ، سواء أكان غنياً ، أم فقيراً ،

سواء أكان سيداً، أم عبداً،

سواء أكان ملكاً، أم خادماً،

وسواء ذهب هو إلى ذاك الشخص ، أو أتى ذاك الشخص إليه ،

وسواء أكان على رأس جبل ، أو في هوة وادٍ .

عاد صوت سيده الخفيض يدوي في مسمعه : تحدّث يا لقمان .. لِم أنت صامت؟

قال وهو يتأمل علامات الهدوء التي استكانت في ملامحه :

- لا تعلّق نفسك بالهموم

قال يشجعه على الاستمرار :

- نعم يالقمان

- لا تشغل قلبك بالأحزان

- أجل

- إياك والطمع

- إياي

- ارض بالقضاء

- نعم

- اقنع بما قسّم الله لك يصفُ عيشك ، وتسر نفسك، وتستلذ حياتك.

- أقنع بما قسّم الله لي .

- وإن أردت أن يُجمع لك غنى الدنيا ، فاقطع طمعك مما في أيدي الناس، فإنه ما بلغ الأنبياء ، والصديقون ما بلغوا إلا بقطع طمعهم مما في أيدي الناس .

دعاه إلى تناول فاكهة جديدة أدخلها الخدم ، وكأنه أراد أن يأخذ قسطا من التأمل في هذا الحديث ، ثم قال بعد أن فرغ من تناول الفاكهة ، وأخذ يمسح يديه بقماش ناصع البياض : وماذا تحدثني عن المال يا لقمان؟

أجاب وماتزال آثار الفاكهة في فمه :

- لا تكن مبذّراً ،

ولا تمسك المال تقتيراً ،

ولا تعطه تبذيراً .

جعل الرجل يهز رأسه ، وهو ينظر إليه ملء حدقتيه

فأضاف :

- لا تضيّع مالك ، وتصلح ما ل غيرك ، فإن مالك ما قدّمت ، ومال غيرك ما تركت وراء ظهرك .

واجعل همّك فيما كلفت ، ولا تجعل همّك فيما كفيت .

*   *   *



الفصل الثالث

حول منتصف الليل، آب لقمان إلى موقعه بين العبيد حتى ينال قسطا من الراحة لينهض عند بزوغ الضوء مع العبيد لجمع الحطب .. ستكون أمامه فرصة يوم جديد ليتعلم شيئاً جديداً لم يكن يعلمه من قبل .. سوف يتأمل الشجر اليابس .. يتأمل كيف أنه عندما يُطوى غصن منه ، فإنه ينكسر دون مقاومة ، في حين أنه في يَفَعِهِ يرفض أن ينكسر مهما كانت اليد الممتدة إليه جبّارة ، إنه متمسّك بالحياة ، ويقاوم أشد مقاومة حتى لا يجتزَّ من شجرته .

والثمرة اليافعة تبدي مقاومة في وجه الريح حتى تبقى متلألئة تزيِّن غصنها ، لكنها عندما تنضج تقع على الأرض من تلقاء نفسها لأنها إن لبثت على غصنها فسدت ، وما أتى بعدها من ثمار .

كذلك يا لقمان عليك أن تنظر إلى كل أمر في الحياة ، كل أمر يمكن له أن يُلوى ، ويكون وفق مشيئتك عندما يكون في مهده ، غير أنه عندما يتقدم في العمر ، فإنك إن سعيت إلى ليّه ، كسرته ، وإلا سوف تضطر إلى الانسجام مع اعوجاجه كضريبة تدفعها على خطيئتك أول الأمر .

كل شيء يخضع لمرحلة طفولة يا لقمان ، لا شيء لا يمهد من طفولة :

طفولة الزواج ، طفولة الأبوة ، طفولة الولاية ، طفولة الغنى ، طفولة الفقر ، طفولة الإيمان ، طفولة الإلحاد ، طفولة المحبة ، طفولة البغضاء، طفولة الصداقة ، طفولة الخصومة ، طفولة اليفَعِ ، طفولة المراهقة ، طفولة الشباب ، طفولة الشيخوخة ...

كل مراحل الطفولة الحياتية هذه تكون بيديك ، تستطيع أن تلويها وفقما تأبى في طفولتها ، فتلبث على ما لُوِيَتْ عليه كنقش على حجر ، لن تتقوى نفسك عليك إلا بقدر استجابتك الواهنة لها ، ولن تتقوى عليها إلا بقدر قدرتك على إخضاعها .

الذي يفشل أن يكون سيدا على هوى نفسه ، لايحالفه نجاح ليكون سيدا

حتى على شعرة من بدنه .

ليست ثمة سيادة قبل الإمسـاك بزمـام السيادة على هـوى النفس ياخليلي...

ثم تجوب أعتاب مخيلته شطر تأمل عميق في ديمومة العلاقة بين الماء والشجر ، وماتلبث أن تقفز واقعة جرت منذ عام حينما لمح عبداً ، وقد نسي إناء ماء يغلي على حطب ، فناداه قائلاً : أتعرف ما يقوله الماء لوقود الحطب يا أخي ؟!

التفت إليه العبد دَهِشا وقال : لا تالله لا أعلم !

قال : إنه يستنجده : يا حطب رأفة بي ،

لقد سقيتُ بذرتك إلى أن غدت شجراً يافعاً،

لا تردّ المعروف بمنكر .

يا حطب ، لولاي لما زهرتِ عليك زهرة ،

لما رفرف على غصنك طير ،

لما قبّلت جبينك فراشة ،

لما كنت عريساً في بهاء ربيع ،

لما كنت الآن تنهي مهمتك ، فتصنع طعاماً للجائعين .

يا حطب رأفة بي ،

أحرقتني ، وأهلكت نفسك في خاتمة حياتك ،أهذا هو جزاء المعروف؟!

فهرع العبد لتوه ، ورفع الإناء عن النار ، فقال لقمان : تبيّن ما على الأرض يا أخي حتى لاتحرقه ، ضعه برفق .. بكثير من رفق ، فإن الهواء سيأتي لنجدته ، ويخفف عنه لهب احتراقه .

وعندما طها العبد الطعام ، رآه يتبخر بنعومة كأنه يرقص ، ويصدر رائحة طيبة ، حتى غطاء الإناء بات يصدر صوتاً رناناً كأنه يشدو بلحن طربا .

فقال لقمان : أتدري يا مهران ما يقوله الماء للحطب يا أخي ؟

قال العبد ، وهو لايملك أن يخفي دهشته الشديدة : بالله لا أدري يا لقمان !

قال : إنه يقول : لقد أحسنتَ إليّ في ختام حياتك وحياتي ، كما أني أحسنتُ إليك في بدء حياتك وحياتي .

بعد ذلك غدا ذاك العبد يتقرب من لقمان ، ويجد فيه صدراً رحباً حتى يبثه ما يختلج في نفسه .

قال : ياليتني كنت حراً يالقمان .

قال : الحرية ليست الوقت الذي تملكه ، إنها شعور داخلي يمكن لك أن تعيشه حتى لوكنت قعيد زنزانة .

اليأس يا صاحبي ليس مجدياً في موقعنا ، علينا قبل كل شيء أن نشعر بأننا نفعل شيئاً مجدياً للإنسان وللحياة ، ثم نسعى بما نملك إلى الحرية التي إن لم نبلغها ، ستأتي أجيال تكمل ما وضعنا لبناته الأولى حتى تبلغه .

ثم يستمر بهما الحديث فيبثه لقمان القلق الذي يشعر به نحو الإنسان بصفة عامة ، الخوف الذي ينتابه على مصير الأجيال القادمة إن تخلت عن القيم الإنسانية ، لذلك يريد أن يتوسع في المعرفة ، يريد أن يختلي بذاته حتى يتأمل في أهمية الحكمة التي يمكن لها أن تقدم شيئاً مجدياً للناس .

لبث مهران يصاحبه حتى عند الذهاب إلى الأعمال التي يقومان بها ، وذات مرة بينما كانا يقطفان ثمار بعض الأشجار ، تعرض لقمان لضربة الشمس في رأسه ، وبغتة أغمي عليه ، حمله مهران حتى وضعه على حمار ،

وعاد به إلى المهجع .

لبث لقمان يعاني الغثيان والدوار ، ولايتناول الطعام إلا نادراً ، ولبث الرجل يهتم به حتى بلغ الأمر إلى السيد بعد نحو شهر من الحادث ، فجاء واطمأن عليه ، ثم بعد أيام أحضر له بعض الحكماء لعلاجه .

عندذاك قال له مهران : الحكمة أعطتك منزلة محببة لدى سيدنا يالقمان

قال : الإنسانية لاتحتاج إلى الحكمة فقط ، إنها تحتاج أيضا إلى مَن يصغون للحكمة ويستجيبون لها ، الحكيم بدون الناس ، مثله مثل رجل يقف على قدم واحدة ، والناس بدون الحكماء مثلهم مثل رجل يقف على قدم واحدة ، وينظر بعين واحدة ، ويسمع بأذن واحدة .

ستة شهور أمضاها لقمان مستلقياً على ظهره لايقوى على الحراك، عندها أدرك قيمة العافية التي يتمتع بها الإنسان ، وأن عليه أن يغتنم كل لحظة عافية لنفع الناس ، حتى لو كان ذلك عبارة عن إماطة أذى عن طريقهم .

*　　　　*　　　　*



الفصل الرابع

بوغت لقمان عندما أتاه عبد حاجب في مجلس السيد ، وأنبأه بأن سيده يأمره أن يدخل عليه صباحا، وألاّ يصطحب العبيد للم الحطب هذا اليوم!!

نادرة هي المرات التي يطلبه فيها سيده في مثل هذا الوقت الباكر ، فهو لا يتأخر كثيراً في نوم الصباح ، وعلى الأغلب يتسلّى مع رفاقه ، أو يركب حصاناً ، ويزور أحد معارفه ، أو يخرج إلى سوق النخاسين يأخذ عبداً لبيعه ، أو يجلب عبداً جديداً ، أو يأخذ جارية لبيعها ، أو يأتي بجارية جديدة .

يذكر أنه مذ وطئت قدماه بيت هذا السيد ، طلبه مرتين في مثل هذا الوقت، مرة قال بأنه لم ينم حتى الصباح ، فطلبه ليتحدث إليه حتى ينام، ومرة خرج في سفر طويل أرشده إلى موضع الذهب ، وقال إنه إن لم يعد، عليه أن يوزع هذا الذهب بين زوجاته وأولاده بالعدل .

هذه هي المرة الثالثة ، فما الذي وقع للرجل حتى يطلبه في وقت طارئ كهذا ، ويطلب إليه التخلف عن الذهاب إلى العمل بصحبة

العبيد ، وقد عادت إليه عافيته ؟!

لم يخفِ مهران قلقه على صديقه وهو يودعه مضطراً للذهاب مع العبيد إلى العمل، انبجست الدموع من عينيه وهو يحتضنه لعله يكون الاحتضان الأخير، لعلها تكون النظرات الأخيرة التي ينظرها إليه ، لعلها تكون الكلمات الأخيرة التي يقولها له : إن لم نلتق يالقمان ، اغفر لي ما بدر مني دون قصد بحقك .

انهمرت الدموع من عيني لقمان وهو يقول : لا ياصديقي ، بل أنت الذي تغفر لي ما قد بدر مني بحقك ، وسبّب لك حرجاً .

لبث لقمان ينظر إليه إلى أن توارى عن أنظاره مع بقية العبيد .

عندما أخذت كرة الشمس تصعد قليلاً إلى كبد السماء ، تقدّم لقمان

بخطوات وئيدة صوب مجلس سيده ، ولايدري لِم يعتريه وجل بأن الرجل سوف يأخذه إلى السوق ليبيعه إلى نخّاس يسيءَ معاملته .

وقف قبالة الباب لحظة، وكأنه يقف لآخر مرة أمام هذا الباب، ثم ارتفعت يده اليمنى بطرقة استئذاناً للدخول .

خرج أحد الخدم قائلاً: ادخل يالقمان ، سيدنا بانتظارك .

ولجت به قدماه صوب الداخل ، فبصره في وداعة ولطف عكس ما يخبره.

سرت نسمة أمن في عروقه ، وهو يمد الخطوة تلو الأخرى ملقياً عليه التحية ، فنهض الرجل من فوره مرحّبا به ، وقائلاً له دون أي تمهيد للحديث :

- جئتُ بك اليوم يا لقمان لأضعك أمام أكبر امتحان سوف يغيّر مجرى حياتك .

قال وقد ابتسم لأول مرة في حياته بين يدَي سيده بشيء من طلاقة :
- يا سيدي ، إني لأرجو أن يجعلني اللّه عند حسن ظنك بي .

قال وهو يربت على كتفه بعزم :

- وإني أيضاً لأرجو ذلك .

ثم أردف ، وكأنه على عجلة من أمره :

- يا لقمان إذن اذهب الآن ، اذبح شاة ، وأتِ بأطيب مضغتين فيها .

جمد لقمان بأرضه دون أن يتوقع طلبا مباغتا كهذا ، وبدا أمام أنظار سيده في حيرة من أمره .

فأعاد الرجل ذات القول مرة أخرى بمزيد من فصاحة وجدية .

بعد حين من وقوفه قبالة سيده الذي ما يزال واقفاً، امتثل للأمر قائلاً:

- سمعا وطاعة يا مولاي .

انصرف ،وقد تلبسته حالة من الشرود أمـام سماع كلمتين كبيرتين لم يتوقعهما هذا الصباح .

فما هو الامتحان الذي سوف يغيّر مجرى حياته ، وهل سوف يغيره شطر النفع ، أم شطر الضر ؟!

وما هو مضمون هذا التغيير الذي تحدّث به بكل تلك الجدية والتبيان على الأخص وهو يعيد المطلب كرتين ، وأي تغيير سوف يقع على عبد مملوك لايملك من أمره شيئاً .

لم يستقر في غياهب شروده ، ولعله لم يرغب في أن تتشتت به التكهّنات، فسلك منعرج باب الحظيرة على الفور ، اختار شاة وقام بذبحها ، ثم بطهيها دون أن يمنح نفسه أي فسحة فراغ لمزيد من التفكير في زحمة الاحتمالات .

في أوان الغداء وقف إلى المضغتين المستويتين ، تناولهما وكأنه يتناول نتيجة امتحان امتحنه به سيده .

مضى نحو ذات الباب ، وكأنه يمضي إليه لأول مرة ، كأنه سيرى سيده أول مرة .

بمحاذاة الباب سمع صوت الخادم يهتف به :

- ادخل يالقمان ، سيدنا بانتظار ما أمرك به .

مد خطواته الوئيدة نحو الداخل ، وقد استبد به إحساس بأنه يلج قاع بئر .

دلف إلى سيده بهيئة واثقة وجادة حاملاً المضغتين على صفحتَي كفيه في صحن ، وقد سترهما بقماش زهري اللون .

عندما رآه سيده داخلا ، وقف على قدميه، وهو في لهفة حتى يرى ويأكل أطيب مضغتين في الشاة .

عندئذ سبقته كلماته :

- هل فعلت ما أمرتك به يالقمان ؟

أجاب وهو يصوّب نظره إلى الصحن ، وكأنه كنز ثمين :

- لك ما أمرت يا مولاي .

نظر السيد إلى الصحن ، وقال :

- إذن اكشف لي عن هاتين المضغتين .

وضع الصحن على المائدة ، ثم مد يده إلى طرف الغطاء ، والسيد في لهفة من أمره .

رفع القماش شيئا فشيئا ، فتراءى اللسان والقلب على رغيف من خبز الصاج في قاع الصحن .

قدم الوجبة إلى سيده قائلا ً:

- ما كان في الشاة شيء أطيب من هاتين المضغتين ياسيدي .

هز الرجل رأسه دون أن يلفظ كلمة واحدة ، ثم بإشارة من يده أمره أن يدع الصحن وينصرف .

عادت به قدماه نحو الخلف حتى أخرجتا جسده ، فأدرك في تلك اللحظة بأنه قام بما أمره به سيده ، وعليه انتظار ما سينتج عن ذلك .

عاد إلى مهجعه الفارغ من العبيد ، استلقى على ظهره واضعا رأسه على راحتـَي كفيه ، وقد شبك أصابعه .

من جانبه لبث (مهران) في قلق شديد على صديقه ، وهو يتخيل أنه

سيعود ولن يجده .

عندما عاد العبيد مساء ، كان مهران يتقدمهم وهو يدعو الله أن تقع عيناه على لقمان ، في تلك اللحظات كان لقمان يقف أمام المهجع بانتظار رؤية صديقه ، وبغتة هرع الصديقان وكأنهما كانا في غربة طويلة عن بعضهما ، احتضنا وسط دهشة العبيد الذين ما لبثوا أن تقدموا إلى لقمان واحتضنوه شاكرين الله على بقائه بينهم .

سأله العبيد عما وقع له بين يدي مولاهم ، فلم يتحدث عن شيء ، وعندما انتصف الليل سأله مهران عن سبب ذهابه إلى السيد في ذاك الوقت المبكر.

طال به الصمت دون أن يفوه بحرف واحد ، فعلم مهران بأنه لايبغى الإجابة .

عندئذ انفجرت التكهّنات من كل حدب وصوب على أسماعه .

لبث لقمان ينتظر ما سيبدر من سيده بشأن ما قال بأنه امتحان ، وبشأن التحول الكبير الذي سوف يطرأ على حياته .

بقي في حالة ترقب دائمة حتى أنه أحياناً يبقى يقظاً حتى يدركه انبلاج الفجر متوقعا نداء منه .

في هذا الوقت لاحظ مهران علامات الاضطراب بادية على صديقه ، فهو بات قليل الطعام ، قليل النوم ، كثير الترقب .

وإن كان ألفه منعزلاً ، فقد ما ل الآن كل الميل إلى العزلة والشرود .

في الليل وعندما يغرق العبيد في لفائف النوم بعد العودة من عمل شاق ، يشرد لقمان متحدثاً مع نفسه :

تُرى هل فشلتَ في الامتحان الذي امتحنك به سيدك يالقمان ، هل بدر

منك أمر غير مستحَب وأنت تحدثه ، هل نسيت وأنت في حضرته بأنك عبد ، وهو سيدك ، وصاحبك ، ومالك حريتك ، هل ترحابه بك جعلك تتجاوز حدود العبد مع السيد ،

هل سوف يأخذك إلى سوق العبيد ، ويبيعك لتاجر جلف شرير عقاباً لك ؟

وعادت به الذكريات في عهدة هذا السيد ، تذكّر ذاك اليوم المعلوم الذي أثبت فيه حكمته لسيده ، ذاك اليوم الأول الذي نظر إليه مولاه نظرة إعجاب واعتزاز لامتلاكه عبداً حكيماً كهذا .

يومها تناول مولاه الشراب بإفراط بين جمع من أصدقائه حتى بلغ مبلغًا متقدماً من حالة السكر ، وهو في ذروة ذلك راهن بعض مسامريه على شرب ماء بحيرة .

اتفق معهم على شرب كامل مياه البحيرة ، وإن لم يفعل سوف يعطيهم كل ما يملك بما في ذلك العبيد والماشية ، وإن فعل ذلك سوف يعطونه بقدر ما يملك من مال وعبيد وماشية .

في صبيحة يوم الغد عندما استفاق من الثمل مع أصدقائه الذين باتوا عنده من أجل الرهان ، أدرك خطورة الموقف الذي وضع نفسه فيه ، فكيف له أن يشرب ماء بحيرة ؟! فدعا العبد الذي عُرفت عنه الحكمة ، وطلب إليه أن يستخدم ما لديه من ذكاء حتى ينقذ أمواله، ويفكه من هذا الرهان .

عند ذاك، قال له وهو يشدد على الكلمات :

– لمثل هذا اليوم خبأتك يالقمان.

قال لقمان بأنه يحتاج إلى بعض الوقت حتى يفكر في مخرج ، وأنه حول الغداء سيدخل عليهم ويتحدث بما توصل إليه .

بعد أن تناول الضيوف وجبة الغداء ، دخل لقمان ، فقال مولاه لضيوفه :

- على أي شيء خاطرتموني ؟

قالوا :

- على ماء هذه البحيرة .

عندئذ قال لهم لقمان :

- إن لها مواد [1]

ثم بعد قليل أضاف :

- احبسوا عنها موادها حتى يشربها .

قالوا بدهشة :

- كيف نستطيع أن نحبس موادها ؟!

فقال لقمان :

- وكيف يستطيع شربها ولها مواد ؟!

لم يبق أمام القوم غير أن ينصرفوا أمام مطلب لقمان ، وبذلك استطاع أن ينقذ سيده من عواقب هذا الرهان .

منذ ذلك اليوم ذاع عن لقمان بأنه العبد الذي انتصر لسيده في رهان شرب ماء البحيرة .

بعد اثنين وعشرين يوماً من هول القلق والانتظار ، فوجئ قبل ذهابه إلى العمل بأن سيده يدعوه في ذات الوقت الذي دعاه فيه المرة الأخيرة .

أحس أن جبلاً قد أزيح عن كاهله ، ولأول مرة منذ تلك الصبيحة أخذ يتنفس الصعداء .

١- جداول تمدّ البحيرة بالماء

راوده إحساس بأنه يحتاج إلى الجلوس بمفرده بعد أن خرج العبيد إلى العمل، وكان مهران أقل قلقاً من المرة الماضية لأنه تكهّن بأن سيده يطلب إليه الاستشارة في بعض أموره .

جلس القرفصاء يشرد بما يمكن أن يسمعه ، أو يُصعق به ، أمضى بعض الوقت حتى أحس بأنه بات على استعداد نفسي لتلقي أي نبأ يمكن أن يُباغَت به .

تقدّم إلى حجرة سيده دون أن يشغل نفسه بأي فكرة ، لم يكن راغبا في توقع أي أمر ، وغدا يوقن بأن ليس ثمة أفضل من المفاجأة في حدث مفصلي كهذا .

لدى دنوه من الباب، رأى قامات غريبة تدلف إلى مجلس سيده ، وعندذاك قال له أحد الخدم إنهم ضيوف السيّد قدموا بغتة ، وقال إن سيده قد أجّل اللقاء به إلى حين آخر .

لم يشأ لقمان أن يعود إلى المهجع حتى لايمضي اليوم وحيداً تحت وطأة الأفكار التي يمكن لها أن تتزاحم عليه ، واتجه على الفور صوب مواقع جمع الحطب حيث رفاقه .

كان العبيد بانتظار العودة حتى يسمعوا ما حدث مع لقمان ، بيد أنهم فوجئوا به بينهم .

قال لقمان بأن ضيوفاً وقعوا على الرجل بغتة ، فأجّل موعد اللقاء به إلى يوم آخر .

من جهته سر مهران لذلك وهو يمسك بيد صديقه وينفرد به للقيام بالعمل معاً .

قال :

- ليتني علمت بما ينويه لك مولانا يالقمان .

أجاب :

- إنه ينوي خيرا يا صاحبي

قال :

- أتظن ذلك ؟

أجاب :

- إني لأرجو من الله أن يكون ذلك

عند عودتهم في المساء ، أخبره أحد الخدم بأن سيده يأمره بأن يطهو طعام العشاء لضيوف أعزّاء لديه ، وهو الذي عُرف عنه المهارة في طهي الطعام اللذيذ .

مضت ستة أيام على ذهاب الضيوف ولقمان ينتظر لحظة بلحظة أن يطلبه مولاه حتى خطر له ذات مساء أن الرجل نسي الأمر ، وخطر له أن يخبر أحد الخدم ليذكّره به ، لكنه آثر التأني ، ولبث بانتظار الفرج الذي يضع حداً لمعاناته .

في صبيحة اليوم السابع ، دخل ذات الخادم الذي اعتاد القيام بهذه المهمة إلى المهجع ، وأخبره أن مولاه يطلب إليه الحضور فوراً .

تهيأ لقمان لذلك ، وبعد قليل اتجه صوب المجلس الذي يجلس فيه ذاك الرجل المالك لقرار مفصلي في حياته .

عندما وقف بين يدَي مولاه قال له على الفور :

- هل أصابك داء يا لقمان؟

أجاب بثقة :

- لا يا مولاي...

قال :

- تبدو عليك علامات الداء يا لقمان ، إن كنت عليلاً سوف نرى لك دواء.. إنك لا تعلم قدر منزلتك عندنا .

هذا الحديث جعل قلبه يطمئن ، ولم يملك نفسه من دموع بدأت تسيل من عينيه، فأردف السيد إذ ذاك : في المرة الماضية طلبت إليك أن تذبح شاة وتأتي بأطيب مضغتين فيها .

قال :

- نعم يا مولاي

قال :

- اليوم أطلب إليك أن تذبح شاة ثانية ، وتلقي بأخبث مضغتين فيها، ثم تأتي وتخبرني .

جمد لقمان مرة ثانية في أرضه وكأنه صُعق .

قال الرجل :

- هل بلغك الأمر جيداً يا لقمان ، أم ترى أن أعيده على سمعك ؟

خفض رأسه قائلاً :

- بلغني الأمر جيداً ياسيدي، سمعاً وطاعة .

خرج لقمان ، وقد أطلق عنان التفكير لمخيلته ، فما الذي يقصده السيّد من خلف هذا المطلب الذي بدا غريباً ؟

الآن عليه تنفيذ ما أُمِرَ به حالاً، والرجل ينتظر صنيعه ساعة بساعة .

اتجه كرة أخرى إلى حظيرة الشياه ، أمسك برأس واحدة ،وبعد نحو ساعة من خروجه عاد إلى سيده قائلاً :

- لقد ألقيت أخبث مضغتين من الشاة يا مولاي .

قال :

- وماذا ألقيت يا لقمان ؟

قال :

- ألقيت اللسان ، والقلب .

علت سمات التعجب محيا سيده قائلاً :

- أمرتك أن تأتيني بأطيب مضغتين، فأتيتني باللسان، والقلب، وأمرتك أن تلقي بأخبثهما ، فألقيت اللسان والقلب !!

فقال لقمان إذ ذاك :

- يا مولاي إنه ليس أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا .

نظر إليه الرجل ، وغدا يتأمل في قوله نحو ساعة ، ثم دنا إليه ، وغدا يطبطب على كتفه قائلاً :

- اذهب يا لقمان ، فأنت حر طليق ، عار عليّ أن أبقيك عبداً عندي ، أوعند غيري بعد اليوم ، لقد أعطيتني ثمنا لا يضاهيه أي مال في الدنيا .

إنها أعز كلمات سمعها من سيده ، هذه الكلمات التي سوف تبقى محفورة في ذاكرته ، هذه الكلمات التي تملؤه شعوراً بانطلاقة جدّية ، وحقيقية نحو رحابة الحياة .

أخذ يغمر مولاه بنظرات الشكر والامتنان ، وقد اغرورقت عيناه بفيض الدموع .

إنها المرة الأولى التي يرى فيها سيده يبكي ، ذاك السيد الصارم ، شديد اللهجة ، بالغ الجدية يبكي أمام عبد ، ويقول بأنه يبكي فرحاً لحريته ، ثم يبكي حزناً على فراقه .

عاد لقمان إلى حديث نفسه في تلك اللحظات الانتقالية الكبرى في حياته :
أجل يا لقمان ، بقدر ما تشعر بأنك مدين في هذا الوقت لهذا الرجل الكريم الذي أعتقك من العبودية إلى الأبد ، فإنك مَدين للحكمة .

كنتَ في السابق تملك الحكمة ، أمّا الآن ، فإنك تملك الحكمة ، وتملك حريتك ، هذه الحرية التي عليك أن تغتنم كل لحظة فيها من أجل ترسيخ الحكمة في نفسك ، ومن أجل أن تقدّمها لنفع الناس .

إنها مسؤولية الحرية العظمى هذه المرة يا لقمان ، فانظر بتأن إلى كل خطوة تخطوها ، كل كلمة تنطقها ، كل عمل سوف تقوم به ، وأنت تمتلك حرية كاملة .

طلب إليه الرجل أن يجلس بجانبه قائلاً بأنه الآن رجل حر لا يقل شأناً عنه، وعليه أن ينسى كلمة «مولاي» هذه الكلمة التي ألغت الحرية مفعولها.

ثم قال :

- لكني يالقمان أطمع في أن تودعني ببعض ما لديك من حكمة .

جلس لقمان مجاوراً الرجل وقال :

- إني لأسأل الله تعالى أن يجري على لساني الخير ، وأن ينفعك به .

قال :

- وإنني مدين لكلماتك تلك بخصال حميدة ما كنت أقر بها لولاك يا لقمان.

قال لقمان :

- أوصيك بخمس خصال

قال الرجل بغصة غلبت نبرة صوته :

- أوصني يا لقمان

قال والغصة تغلب نبراته :

أولها : أن لا تشغل نفسك بالدنيا إلا بقدر ما بقي من عمرك .

الثانية : أعبد ربك بقدر حوائجك إليه .

الثالثة : ليكن شغلك في فكاك رقبتك من النار ما لم تظهر لك النجاة منها .

الرابعة : لتكن جراءتك على المعاصي بقدر صبرك على عذاب الله .

الخامسة : إذا أردت أن تعصي الله ، فاطلب مكاناً لا يراك الله وملائكته فيه.

هز الرجل رأسه مغمض العينين مطأطأ الرأس ،

فأردف لقمان :

- وأوصيك باثنتين ما تزال بخير ما تمسكت بهما : درهمك لمعاشك ، ودينك لمعادك .

يصغي الرجل إليه ، ويطلب المزيد

يصمت لقمان قليلاً ، ويضيف :

- أغلب غضبك بحلمك ، وهواك بتقواك .

ثم يردف :

- كن في الشدة وقوراً .. في المكاره صبوراً..

في الرخاء شكوراً.. في الصلاة متخشعاً.. وإلى الصدقة متسرّعاً.

إن كنت في الصلاة ، احفظ قلبك .

إن كنت في الطعام ، احفظ حلقك ،

إن كنت بين الغير ، احفظ عينيك ،

إن كنت بين الناس ، احفظ لسانك .

واذكر اثنين ، وانس اثنين :

أما اللذان تذكرهما : فاللّه ، والموت ،

وأما اللذان تنساهما : فإحسانك في حق الغير ، وإساءة الغير في حقك .

* * *



الفصل الخامس

في صبيحة اليوم التالي أولم الرجل وليمة دعا إليها أهالي الناحية احتفالا بحرية لقمان .

ومنذ ساعات الصباح الأولى بدأت حلقات الدبكة ، والرقصات، وبدت مظاهر الاحتفال على أهالي الناحية بمن فيهم العبيد .

قال مهران والدموع تترقرق في مقلتيه :

- إنني فرح يالقمان لعتقك ، وتعس لفراقك ، لكن فرحتي تغلب تعاستي ، إني لأرجو أن يوفقك الله في حياتك الجديدة التي أنت أهل لها .

قال لقمان :

- وإني لأسأل الله تعالى أن يجعل لك ما هو خير .

في ركن، تجتمع نسوة حول نقار يبدي حركات بهلوانية ، تارة يهز خصره بحركات مضحكة ، وأخرى يهرول ، ويقفز بشكل لافت للأنظار ، وهو يستجيب على قدر ما تحرّضه النسوة على المزيد .

الإنسان إذن كائن توّاقٌ لاكتشاف أشكال وألوان التعبير عن نفسه ، وهذا السعي من حقه ، وقد استطاع أن يبدع في هذه الألوان أحيانا بشكل أدق من الكلمة المباشرة .

إنها في واقع الأمر يالقمان لغات غير لفظية ، فهو يمكن أن يعبّر عن موقفه من واقعة ما من خلال نظرات عينيه ، يمكن أن يعبر من خلال حركة في شفتيه ، من خلال تقطيب في الحاجبين ، أو حركة في قسمات الوجه ، والضحك محاولة للتعبير ، والمشاركة في حدث ما دون لغة ، كما أن البكاء له ذات الوقع .

قد يعتمد الإنسان أحيانا على الصمت في محاولة لإبداء رغبة ، أو رفضها مثل الفتاة التي تصمت عندما تُسأل من قِبل وليها إن كانت توافق على زواجها من شخص قدِم لخطبتها .

كما أنها يمكن أن تعبّر بالصمت ذاته عن الرفض ، فتبدي استياء يظهر على قسمات محياها ، وقد تهز رأسها علامة على الرفض ، وتستدير ذاهبة إلى حجرتها .

يمكن للشخص أن يبدي عدة هزات من رأسه نحو الأسفل علامة على الموافقة، كما يمكن أن يرفع حاجبيه نحو الأعلى دلالة على الرفض .

ثم استطاع الإنسان أن يصنع آلات تصدر أصواتا تعبر عن فرحه، أو ترحه ، وهذه الآلات ذاتها يمكن لها أن تُرقص المرء ، ويمكن لها أن تبكيه عندما تكون لغة الجسد هي المستولية في واقعة ما .

ويمكن في بعض الحالات أن تعبّر تلويحة اليد عن السلام ، وكذلك عن الوداع .

هذه هي الحياة التي عليك أن تخبرها جيداً يالقمان ، عليك أن تخبرها حتى تكون جديرا بالعيش فيها ، وحتى تستطيع أن تستوعبها ، وأن تخوض غمارها .

لكن لا تنسى يا لقمان أن الحركات التي تراها الآن تعبر عن فرقة القوم بأنك صرت حراً...

الآن.. أنت حر يا لقمان

الآن تدرك قيمة الحرية أكثر من أي وقت مضى من عمرك الذي شارف على الخمسين .

الآن تدرك كم أن العبودية سجن ، وكم أن العتق فضاء مفتوح .

تدرك أن أقسى إحساس يمكن أن يعتري الإنسان هو إحساسه بأنه لا يملك نفسه ، إحساسه بأنه يُقاد كأي دابة في الأرض ، يُقاد سواء شاء أم أبى .

الآن تدرك أن أسمى إحساس يعتري الإنسان هو إحساسه بأنه يملك نفسه، ويملك اختيار الجهة التي يمد خطوته الأولى نحوها .

عندما تكون حراً، فإنك تمارس حريتك وفق مشيئتك ، وعندما لاتكون حراً، فإنك تمضي وفق مشيئة سيدك .

اعلم يالقمان أن العبودية لاتكون للسيد فقط ، فكم من حر عبد ، كم من حر هو عبد لأهوائه ، عبد لوسوسة نفسه ، عبد لماله ، عبد لنزعة الشر في كوامنه .

عندما لا يملك الإنسان زمام نفسه ، فإنه لا يملك شيئا ، وعندما يملك زمام نفسه ، فإنه يملك كل شيء .

بعد تأمل عميق في صفحات حياته المقبلة رأى لقمان أن يبتعد عن هذه الناحية التي أمضى فيها عبداً .

رأى أن يبتعد عن هذه الطقوس التي عاشها ، أن يتجه إلى أرض جديدة لم تطأها قدماه من قبل .

هناك سيكون بمقدوره أن يخطّط لحياته المقبلة التي يمارس فيها كل حريته ، وبالتالي يكون مسؤولا عن حياته ، وعن علاقاته بالآخرين .

أعطى سيده ثلاثة أيام للعبيد حتى يودعوا لقمان ، وخلال هذه الأيام توقف العبيد عن الذهاب إلى العمل ، يمضي لقمان بينهم حتى المساء ، وعندئذ يتجه إلى سيده ، يجلسان حتى وقت متأخر من الليل ، ويبيت في حجرة سيده .

عندما حان موعد الفراق ، ودع لقمان سيده بحرارة ، ثم ودع العبيد عبداً عبداً ، وودع الجواري جارية جارية ، ثم راح يحتضن صديقه مهران ويودعه بدموع غزيرة .

ركب الحصان الذي أهداه إليه سيده ، وابتعد عن تلك الأرض صوب

مكان مجهول دون أن يخطط له .

يمضي ، وهو يستنشق نسيم الحرية لأول مرة ، يمضي شاعراً لأول مرة بعدم وجود أحد يتبعه ، يعتريه إحساس بأنه مزّ ق ذاك الحبل الغليظ الذي كان مكبلاً به ، الحبل الذي كان دوماً بقبضة سيده .

الآن يسير دون حبال ، يمضي بطلاقة إلى حيث يشاء ، وهذه من نِعم الله الكبرى التي بدأ يكتشفها مع كل خطوة حرية .

بعد مسير نحو عشرة أيام، رأى أن يستقر بين أناس ألفهم ، وألفوه من أراضي النوبة الشاسعة .

جلس إلى الناس   ، وأحس بأنه الموضع المناسب الذي يمكن له أن يحل فيه ، وكخطوة أولى نحو الحياة الجديدة التي يناشدها قرر أن يعتمد على نفسه .

أمضى أياماً بين أناس يراهم لأول مرة حتى تعرف على تاجر أغنام طلب إليه أن يرعى غنمه .

إنها الفرصة الأولى لكسب المال ، اللبِنة الأولى لعمارة حياة حرة كريمة.

ركب حماراً واتجه إلى سعة الأرض يسرح في ثلاثمائة رأس من الغنم ، يشعر بطلاقة الحياة ، وهو في عمق الصحارى ، والأودية ، والمراعي .

لأول مرة يراوده إحساس بأنه مسؤول كل المسؤولية عن حياته ، إحساس بأنه كائن اجتماعي حر يمكنه أن يقدم شيئا مجديا لهذا المجتمع الذي ينتمي إليه .

تمضي به سنوات عشر ، وهو قائم على رأس عمله الذي يمكّنه من شراء بيت ، ثم يرى أن يترك هذا العمل ، يأخذ قسطاً من الراحة ، ويبدأ رحلة البحث عن شريكة تقاسمه الحياة ، يحبها وتحبه يسكن إليها وتسكن إليه... يلبي، من خلال هذا الحب والسكينة، نداء الفطرة الخالد... وينشئ أسرة

ويكون له أولاد...

يتوقف عن العمل ، ويرى أن ينعزل حيناً للتأمل عما فعله في حريته ، ثم يبدأ رحلة بحث عن امرأة .

يستلقي على ظهره في البيت الذي يملكه ، ينتابه إحساس بجمالية متعة الملكية .

إنه الآن يملك بيتاً ، وأغناماً، ومالاً ، ويملك متسعاً من الوقت للتأمل .

أجل يا لقمان ، إن لم تملك نفسك ما كان بوسعك أن تملك بيتاً، تملك أنعاماً، تملك مالاً .

لا أحد بمقدوره أن يزعجك ، أن يعكّر عليك صفو حياتك .

سنوات من العمل أغناك الله فيها عن الحاجة .

الآن أنت سيّد نفسك ،

سيّد بيتك ،

سيّد أنعامك ،

سيّد مالك ،

سيّد وقتك .

لاتنس للحظة واحدة أن تشكر الله الذي هدى سيدك حتى وهبك حريتك، لاتنس أن تشكر الله على الحكمة التي آتاكها ، التي لولاها ماتميـّزت من رفاقك بشيء ، لعشت ومت عبداً مملوكا .

* * *



الفصل السادس

تأخذه غفوة الظهيرة ، وهو مستلقٍ على ظهره ، فينتبه إثر سماع صوت لا يشبه أي صوت وقع في مسمعه من قبل : يا لقمان ... ؟!

فتح عينيه ليتأكد بأنه ليس في حلم ، فاستأنف الصوت الذي لم يسمع مثله قط : هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق ؟

نهض جاثياً على ركبتيه ، وقد تلبسته حالة عظمى من الخشوع ، أدرك بأن الصوت ينتظر إجابته عن السؤال الكبير .

ارتعدتْ أوصاله ، خفق قلبه ، استبدت به حمّى ، فجعل يقول : إن خيرني ربي ، قبلت العافية ، ولم أقبل البلاء .

لبث الصوت صامتاً ، فأردف ، والكلمات ترتعش على لسانه : وإن هو عزم علي ، فسمعاً وطاعة ، فإني أعلم أنه إن فعل بي ذلك أعانني ، وعصمني .

بعد صمت مهيب خيّم على المكان عاد الصوت قائلا : لِم يا لقمان ؟

قال : لأن الحكم أشد المنازل وأكدها ، يغشاه الظلم من كل مكان .

إن وفى فبالحرى أن ينجو ، وإن أخطأ ، أخطأ طريق الجنة ، ومَن يكن في الدنيا ذليلاً ، وفي الآخرة شريفا خير من أن يكون في الدنيا شريفاً ، وفي الآخرة ذليلا ، ومَن تخيّر الدنيا على الآخرة فاتته الدنيا ، ولا يصيب الآخرة .

قال قوله ذلك ، ولا يدري كيف غار في نوم عميق ليستيقظ نشيطاً كأنه نام دهراً بأكمله ، يستيقظ على وقائع حقائق جديدة لم يكن له حدس بها من قبل .

إنه ثقل المسؤولية الكبرى يا لقمان في هذا اليوم المعلوم الذي غيّر مجرى حياتك مرة أخرى رأساً على عقب .

وكما أنه يقسّم حياته إلى مرحلتين ، مرحلة العبودية ، ومرحلة الحرية،

فإنه الآن يضيف المرحلة الانتقالية الثالثة التي يسميها : مرحلة مسؤولية الحكمة .

هذه المرحلة التي يشعر فيها بأن ملاكاً قد رش عليه أنوار الحكمة .

بعد استيقاظه من ذاك النوم العميق ، الذي اتخذ فيه قراراً بألا ينام نهاراً بعده قط ، يعيش نشوة حياة روحية شديدة الخصوصية ، تجلو له حقائق لم يكن له خبر بها من قبل ، يغدو أكثر قرباً من الله ، أكثر قرباً من الناس ، أكثر قرباً من نفسه .

يتأمل ملكات الله ، وقدراته .

ينظر في ظاهرة الحياة ، في وجود الإنسان ، في عملية تسلسله عبر الزمن، ويوماً إثر يوم تنفتح مدركاته .

يستغرق في التأمل ، ويغدو أكثر تواضعا مع نفسه ، أكثر تسامحاً مع الآخرين .

يدرك بأن الإنسان عليه أن يتعلم كل ساعة ، وعليه أن يزداد إيماناً كل هنيهة ، وهو ينظر إلى مشيئة اللّه ، ينظر إلى عظمته في الخَلق .

كل ما في الطبيعة وما في الإنسان يدعوه إلى الصبروالتمهل والحكمة .

يكتمل في بطن أمه ببطء حتى يأخذ شكله البشري الكامل ، فيخرج إلى الضوء كائناً بشرياً يحتاج إلى مَن ينظّفه ويلبسه ، ثم بصبر ينفتح على الحياة .

يبرز في فمه رأس سن ، ثم سن ، يتحرّك لسانه نحو الألفاظ حرفاً حرفاً، تدب الحركة في جسده حركة ، حركة .

يزحف ، ثم يجلس ، ثم يقف على قدميه ، ثم ينطلق نحو المشي خطوة ، خطوة .

بعد ذلك يبدأ الاعتماد على نفسه في مسألة الطعام ، وتبدأ أسنانه التي تكاد تملأ فمه تعينه على الاستغناء عن ثدي الأم الذي هو المصدر الوحيد لغذائه ، فتهرس له طعاماً ليناً .

ثم يأخذ جسده الذي ينمو صبراً فصبراً بالاعتماد على ذاته في مسألة الاغتسال واللبس .

كل هذه المراحل تمهّد لاكتمال إنسان صبور متمهل في قراراته ، فهو لم يُخلق في أحسن تقويم شكلي فقط ، بل في أحسن تقويم نفسي ومعنوي أيضاً ، ولكن الإنسان ذاته وبعد كل تلك الحكمة في تكوينه وتقديمه إلى الحياة يبدأ التمرد على فطرته التي فُطر عليها ، يبدأ في تدريب نفسه على القبح والشر .

لايوجد كائن في العالم يولد شريراً ، الإنسان ذاته يميل بنفسه إلى هذه النزعات العدوانية وينمّيها في أعماقه، ولأنه يمرد على فطرته الطبيعية ، فإن هذه الفطرة ذاتها لم تعد تمنحه حياة هادئة طبيعية ، يعاني أزمات نفسية حادة ، وتبدر منه مواقف غريبة من شأنها أن تشير إلى عدم سويته واتزانه في المجتمع الذي يعيش فيه مما يؤدي إلى شخص قلق غير مستقر ، فهو يغيّر مسكنه ، ومهنته ، وعقائده ، كما أنه كثير الطلاق وكثير الزواج .

إنه شخص يدمّر ذاته بذاته لأنه على الأغلب ينتهي إلى الانتحار، أو الوهن العقلي .

إذا كان الله يجنّب الإنسان مسؤولية ما يقوم به من أخطاء حتى يبلغ سن الرشد ، فإن الإنسان ذاته هو مسؤول عن نفسه وعن مواقفه فيما بعد، ولذلك فإن كل الشرائع الإلهية لا تدين الإنسان قبل بلوغه سن الرشد ، لكنها تتفق على إدانته فيما بعد لأنه هو الذي يصنع قراراته ومواقفه وهو بكامل الأهلية المعتَبرة في الشرع الإلهي .

الإنسان كائن محظوظ ، لأنه ينفطر على الخير وليس على الشر،

ينفطر على الاتزان ، وليس على الاضطراب ، وهذا يساعده على التحمل والصبر.

يبقى الله معه في مختلف مراحل العمر ، يأتي يوم الصوم يكون في ذروة الاشتهاء البدني ، وتكون حليلته بالقرب منه ، لكنه يضبط شهوته ويعلّمه الصوم كيف يصبر ويتأنّى .

يكون في ذروة الجوع والظمأ ويجتمع على مائدته ما طاب من طعام ، وما لذ من شراب ، لكن الصوم يعلّمه كيف يصبر على جوع وظمأ ولا يمدّ يديه رغم أن أحداً لا يراه .

إن الله غني عن الناس ، لكنه يبقى يقدّم مزيداً من الرحمة ليصلح حال الإنسان ، لأن هذا الإنسان مهما كبر وغنى ونضج ، فإنه لا يستغني عن العناية الإلهية به .

الإنسان يعيش حياة طبيعية على قدر ما يسير وفق نظام الطبيعة. بمقدور الإنسان أن يستعين بمخزون التوازن في فطرته، ومهما طال به العمر، فإن هذا المخزون لا ينفد، لكن الإنسان هو الذي لايستعين به.

الحكمة الإلهية تتدخل في حياة الإنسان كي تمنعه من التمرد على فطرته.

عبر التاريخ البشري ، فإن الأديان أتت لتقف إلى جانب الإنسان ، ولم تأتِ لتقف عليه .

الأخلاق هي إحدى الثمرات السامية من ثمار الإيمان ، يزداد الإنسان رسوخاً في إيمانه فتينع شجرة الإيمان المباركة في تربة روحه نضيج ثمرة الأخلاق .

الأخلاق سلوك ذاتي مع الذات بالدرجة الأولى ، فتشع مواقف أخلاقية من تلك العلاقة الذاتية مع الآخرين .

مَن عجز أن يكون خلوقا مع ذاته، عجز أن يكون خلوقا مع غيره ، وحتى لو أظهر الأخلاق ، فإنها لاتتبع إلاّ من ذات متأصلة في الخُلق .

إذا عاد إلى ذاته مكث في فراش من فساد .

قد يبدر موقف أخلاقي من عائل مسكين ما بدر من ثري ذي جاه .

الأخلاق تتغذى بالعفة ، تتغذى بالصبر ، تتغذى بالحياء ، تتغذى بالمعرفة، تتغذى بالتقوى ، بالكرم ، بالسلم ، بالعفو،بالشجاعة . الأخلاق هي فردوس الإنسان .

مَنْ لم يكن بتلك المزايا لبث مطروداً من فردوسه يمضي أيامه في تيه من شقاء .

تسمو الأخلاق بإنسان مراتب عليا يستحي من أخلاقه إن راودته نزوة ، وإن غضَّ الطرف استحى من أهله ، وإن تناسى استحى من الله .

تسعى شجرة الأخلاق الراسخة في عمق صاحبها أن تجنبه المهالك .

شاء خالق الكون أن يعز الإنسان ويكرمه بنعمة الأخلاق فألهم نفسه فضيلتها ، وألهمها رذيلتها ، ومنح لهذا الكائن الذي أراد له الحرية أن يسلك أحد السبيلين .





الفصل السابع

يترك البيت مرة أخرى ، ويتجه بما لديه من أغنام قليلة إلى رحاب الطبيعة حتى يعيش حالة تامة من العزلة ، ينفرد مع ذاته ، يتعرف إليها أكثر ، يحاورها .

إن كنت تحمل إبرة يالقمان ، ليس بالضرورة أن تسعى لترى الحياة من خرمها ، إنها بيدك من أجل أن تستخدمها لأمور أكثر نفعاً .

عليك هنا أن تميز بين المعرفة الجادة والنافعة ، وبين الوسوسة .

ترى شخصا أُصيب بوسوسة إلقاء الأسئلة على الناس ، إنه يتلقى الإجابات عن أسئلته ، غير أن ذلك لاينفعه في شيء سواء علم أجوبة تلك الأسئلة أم لم يعلمها .

تراه عندما يلتقي بشخص لأول مرة ، يسأله عن عمره ، عن مهنته ، عن عقيدته ، عن عدد أولاده ، عن أمواله ، وإن رأى الأمر ميسرا يذهب إلى السؤال عن العشرة الزوجية ، عن كيفية تعامله مع حليلته .

إنه يضع هذا الشخص في حرج من أمره ، لأنه يتدخل في أدق تفاصيل حياته ، أوأن هذا الشخص يرفض بشكل مباشر الإجابة عن تلك الأسئلة المتطفلة التي لاتعنيه في شيء .

وإن تحدث مع نفسه ، أمضى ساعات طويلة في أمور لا جدوى منها .

ترى شخصاً أصيب بحمّى الأسئلة

ترى شخصاًأصيب بحمّى النظر

ترى شخص ًأصيب بحمّى الشم

ترى شخصاً أصيب بحمّى الغريزة

ترى شخصاً أصيب بحمّى الدنيا

ترى شخصاً أصيب بحمّى الآخرة

ترى شخصاً أصيب بحمّى الشرود

ترى شخصاً أصيب بحمّى اللامبالاة .

إنك يالقمان تأخذ جزءا من عمارة ما يعنيك ، وتدع مالايعنيك لأنه يلزم شخصاً غيرك ، كما أن شخصا قد ترك جزءا من تلك العمارة لك .

إن معرفة كل شيء ، والإلمام بكل شاردة وواردة ، امتياز خاص بالله الذي له ميزة معرفة كل شيء لكونه خالق الناس أجمعين ، وربهم ، وواهب أعمارهم وأرزاقهم ، ومقسّم المعارف عليهم .

وهذا أمر ليس من اختصاص الإنسان ، الإنسان هنا يتلقى ، وينتفع بهذا التلقي ، ويمكن أن ينفع به غيره .

لله القوة كلها ، له المعرفة كلها ، له اليقظة كلها ، له الحكمة كلها .

ثم إنك يالقمان كائن محكوم عليه بالنسيان والوهن ، فما تعرفه الساعة، قد لاتتذكره بعد ساعة ،

ما تملكه الساعة ، قد لاتملكه بعد ساعة .

يُمضي شهوراً في براري ، وأودية النوبة ، يتأمل عالم الحيوان ، عالم النبات ، ينظر إلى نعجة تلد ، ينظر إلى عنايتها بمولودها ، يتعرف إلى أصناف وألوان الحيوانات ، على أصناف وألوان النبات ، الجماد ، ثم في عمق دجى الليل يرفع عينيه وسط الظلام الدامس يتأمل رحابة السماء ، يتأمل حركة النجوم وهو يتمتم :

سبحان الله ..

ثم : سبحان الله وبحمده ..

ثم : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له .

ثم يصدر منه صوت : إن الله إذا استودع شيئا ، حفظه .

بعد قليل يقوم ، ويصلي في عتمة الليل ، يصلي بخشوع يشعر فيه بأنه قريب من اللّه ، أنه يقف بين يدي اللّه .

لقد علمته هذه الحياة الروحانية شديدة الخصوصية الكثير ، علمته كيف يكون صبورا ، كيف يدرب نفسه على كظم الغيظ ، كيف يتحمل أذى الناس في أفعالهم وأقوالهم ، كيف يقدم لهم الصدقات .

يمر الإنسان بظروف قد تتسبب في أن يتخذ قرارات متسرعة غير متأنية، فتنتج عن ذلك عواقب تكون أكثر سلبية من الأفعال التي كانت خلف تلك القرارات ، فإذا لبث الأمر على ماهو عليه لكان أفضل .

إن كظم الغيظ مطلوب دوماً يالقمان حتى يستطيع الإنسان أن ينسجم مع المحيط الذي يعيش فيه .

ليس بوسعك يا لقمان إلاّ أن تحب اللّه أكثر ، ليس بوسعك إلاّ أن تدنو منه أكثر ، ليس بوسعك إلاّ أن تشعر باعتزاز قدر قوة علاقتك به .

في رحابة قوة الإيمان تعيش حالة عظمى من الأمن ،والطمأنينة ، والهدوء الروحي .

إشارات اللّه المباركة هذه إليك تعزز في دواخلك عظمة الشعور بالمسؤولية تجاه ذاتك ، تجاه الناس ، تجاه الوقت ، تجاه كل مقومات حياتك .

إنه اللّه يا لقمان ،

اللّه الذي مجرد لفظ اسمه لهو نعمة عظمى ،

نعمة أنك قادر على أن تلفظ هذا الاسم الجليل ،

اللّه ، يا لقمان ، اللّه ،

انظر بكل حدسك ،

اللّه ،

عندما تلفظه تشعر بنورانية السمو ،

اللّه ،

كل مرة تحمل دلالة جديدة ليست في المرة السابقة .

مهما قلت ، فإنك لا تشعر بأنك بلغت الدلالات ، وكل مرة تفتح آفاقاً أوسع للمرة التي تتلوها سواء بعد غمضة عين ، أو بعد برهة .

وأنت تمضي قل : اللّه

وأنت صامت قل : اللّه

وأنت تتحدث قل : اللّه

لتكن ممتلئاً بذكر اللّه ، حينها يتحاشى الشيطان أن يقربك .. يتحاشى أن يوسوس لك .

ذِكر اللّه هو الحصانة الأقوى في مواجهة وسوسة الشيطان ، ومواجهة قوة الشر الظاهرة والخفية في العالم .

اللّه يالقمان لايتخلى عن الناس هنيهة واحدة ، إنه معهم ، يراهم، يسمعهم،

لايدعهم في مهب الشتات

يرسل لهم الأنبياء والرسل...

ويوجد لهم الحكماء، العقلاء، الأدباء، العلماء، الولاة، القضاة .

انظر يالقمان إلى عامة الناس

انظر يالقمان وتعلّم ، فإنك لن تتعلم إلا إذا أمعنت النظر إلى الناس .

* * *



الفصل الثامن

يعود إلى بيته من جديد ، هذا البيت الذي بات يأخذ شكل المباركة الإلهية أمام ناظرَيه ، البيت الذي شهد أعظم كلمات قيلت له ، البيت الذي شهد أعظم تحول في مسرى حياته .

بعد شهرين من الاعتكاف خرج ، وقد انتابه إحساس عميق بضرورة وقوف امرأة إلى جانبه ، امرأة تمنحه فرصة التغلغل في وقائع الحياة الاجتماعية بشكل أعمق ، تمنحه فرصة أن يغدو أباً.

أخذت الفكرة مسارا جادا لديه ، فبدأ بحثه الجاد عن هذه المرأة التي سوف تكون شريكة لحياته ، ورفيقة لدربه ، تكون حليلة له ، امرأة يشعر بعمق حاجته المادية والروحية إليها ، كما يُشعرها بعمق حاجتها المادية والروحية إليه ، امرأة تتحمل مسؤولية أن تكون زوجة لرجل اتخذ الحكمة منهاجاً لحياته .

البحث المباشر بالنسبة لرجل بالغ الحساسية مثلك يالقمان يحمل إحراجا لك أمام نفسك ، وأمام الآخرين .

تحدّث بطريقة تلميحية لأحد مجاوريه بأنه لايمانع من الزواج إذا رأى امرأة مناسبة له ، وكان ذلك عندما سأله ذاك الجار عن سبب عزوفه عن الزواج .

بعد نحو شهرين من ذلك الحديث دعاه أحد جيرانه إلى زيارته ، فلم يتردد لقمان من الذهاب إليه مساء، عندذاك رأى امرأة تقدم له الضيافة، فبلغته إشارة أولى بأن الرجل دعاه حتى ينظر إليها ، ثم يعرض عليه فكرة الزواج بها .

بعد خروجها قال له الجار بأنها أخته من أبيه ، تقيم عنده في البيت ، طلقها زوجها بعد سنة من الزواج لخلاف نشب بينهما .

عاد إلى بيته ليفكر في الأمر ، بيد أنه توصل إلى الاقتناع بأنه إن تزوّج

تلك المرأة ، سيكون ذلك حتى يتزوّج وينجب أطفالا فقط ، لأنه لم يشعر بميل عاطفي نحو تلك المخلوقة .

عندما ينظر إلى امرأة ولاتقفز فكرة الزواج إلى مخيلته ، فينظر بأنها شريكة حياته ، أمّاً لأولاده ، رفيقة لدربه في الحياة ، حاملة اسمه ، مؤتمنة على ماله وعرضه وسمعته في الناس، فمن الأفضل أن يدعها لمن يشعر بذلك وهو ينظر إليها .

ذات مرة بينما كان يمضي في شعاب الناحية ، صادفته امرأة مسنة ، وقالت له : هل لك بالزواج من امرأة طيبة يا لقمان ؟

قال :

- أجل

قالت :

- اتبعني

تبعها لقمان حتى ولجت بيتاً فيه شيخ عجوز ، وفتاة في نحو الثلاثين من عمرها .

قالت المرأة المسنة :

- انظر إلى هذه الفتاة جيداً يالقمان ، ثم قل لي إن رغبت فيها زوجة ، ثم قالت ذلك للفتاة .

أحس لقمان بشيء من الراحة وهو ينظر إليها ، تخيل بأنها ستكون رفيقة لحياته ، تخيلها أماً لأولاده ، و بعد نحو ساعة قال بأنه لايمانع من الزواج بالفتاة .

نظرت المرأة المسنة إلى الفتاة ، فقالت بأنها ترضاه زوجاً لها .

عاد إلى بيته ليستعد لهذه المرحلة الانتقالية الكبرى في حياته .

عندما حل الظلام ، تناهت إلى سمعه أصوات متداخلة من الخارج ، فتح الباب ، وإذ بأناس يحملون سيوفا ، ويركبون خيولا ، يقتحمون البيوت ، وينهبون ما يشاؤون .

لم يتمكن حتى من إغلاق الباب عندما هجم عليه أشخاص يحملون سيوفاً، دخلوا البيت ، واستولوا على كل ما وقع في أياديهم ، ثم ربطوه جيداً وهو يقاوم ما بوسعه و يتلقى الضربات حتى أغمي عليه .

عندما استفاق من غيبوبته ، أدرك بأنه واقع في الأسر ، وأنه عاد عبداً ، أما ممتلكاته فقد تم نهبها .

رأى نفسه بين العبيد مرة أخرى .

للتو تذوق مرارة العبودية ، وكأنه لم يكن عبداً من قبل ، أدرك قسوة أن يكون الإنسان كدابة مربوطة بيد شخص آخر يفعل بها ما يشاء . بعد ستة شهور أخذه صاحبه إلى السوق يعرضه للبيع.

تقدم شخص ينظر إليه قائلا :

- ما الذي يمكن أن يساويه هذا العجوز القصير الأسود .

قال صاحبه :

- إنه يساوي عشرين مثقالا من ذهب ؟

قال الرجل :

- بل لايساوي عشرين مثقالا من فضة !

تقدم رجل آخر ، نظر إليه فقال صاحبه :

- لاتنظر إلى شكله ، إنه رجل يدعي الحكمة .

قال الرجل :

- أخشى أن يبقى في ذمتي ولايشتريه أحد مني .

عندذاك تقدم شخص قائلا :

- أتقول بأنه يدعي الحكمة ؟

قال :

- نعم ياسيدي يدعي الحكمة .

قال موجها حديثه للقمان :

- هل هذا صحيح ؟

قال لقمان :

- أجل ياسيدي لقد منّ الله علي بنعمة الحكمة

وبدأ يفاوض حتى اشتراه بثلاثين مثقالا من الذهب .

أخذه الرجل إلى البيت ، ضمه إلى عبيده ، وبعد نحو شهرين أحضره الرجل إلى مجلسه ونوّله ثمرتَي ليمون قائلاً :

- عليك أن تأكلهما حالاً يالقمان.

تناول الليمونة الأولى رغم حموضتها الشديدة ، ثم قشر الثانية وتناولاها حزاً حزاً وهو يقاوم قوة الحموضة .

ولدى الانتهاء قال :

- فعلت ما أمرتني به سمعاً وطاعة يامولاي

عندئذ قال له :

- كيف صبرت على مرارة الحموضة ؟

قال :

- طاعتي لولي نعمتي ومالك حريتي هي التي أعانتني على التحمل .

قال الرجل :

- اشتريتك عندما تناهى إلى سمعي بأنك حكيم .

الآن وقد ثبتت لي حكمتك ، فإنني أعتقك في سبيل الله حتى تنشر الحكمة في الناس .

شكر الرجل على ما منّ عليه من عتق ، وخرج متجهاً نحو بيته .

إنه مرة أخرى يمشي حرا تحت الشمس ، يسلك درب العودة إلى ذاك البيت الذي بناه حجراً حجراً ، وتعرف الجيران من خلاله ، أحس بأن ملاكاً رش نور الحكمة عليه فيه ، سعى إلى الزواج تحت سقفه .

بعد مسير عشرة أيام وصل لقمان إلى بيته منهكاً ، استلقى على الأرض العارية وغار في نوم عميق .

عندما استيقظ، لم يعرف كم من الوقت مضى على نومه ، لكنه أحس بآلام حادة في مفاصله لم يستطع معها النهوض .

بعد قليل ولج عليه جار له يدعى (أيوب) رآه محتقناً يتأوه .

قال :

- متى عدت يالقمان ؟

أجاب والكلمات ترتعش على لسانه : والله لاأعلم

خرج أيوب ليعود بعد قليل حاملا بعض الطعام قائلاً له :

- أنت جائع ياجار.

قال لقمان :

- بل على وشك أن يقتلني الجوع .

لم يكد يجلس حتى بدأ يتناول الطعام شاكراً الله ، ثم شاكرا الجار على

معروفه .

أحس لقمان بحاجته إلى بعض المال حتى يفرش شيئاً في البيت ، ويصلح الأبواب والنوافذ المخلوعة ، ويأتي بزاد ، فاضطر ليستدين بعض المال من أحد جيرانه حتى يتعافى ويعمل ، ويعيد إليه ماله .

رحب به ذاك الجار عندما كفله جاره الحانوتي (أيوب) .

لبث لقمان في البيت حتى عادت إليه عافيته ، عندئذ رجع مرة أخرى يرعى الغنم ثلاث سنوات حتى مكنّه ذلك من إعادة الدين .

بعد ذلك عادت فكرة الزواج تلح عليه ، فاتجه إلى ذات البيت متذكراً ملامح تلك الفتاة .

طرق الباب عدة طرقات ، ففتحه رجل في مقتبل العمر .

سأله لقمان عن أصحاب البيت .

قال له بأن رجلا مسناً مع ابنته الوحيدة كانا يسكنان هذا البيت ، لكنهما تعرضا للغزو والنهب ، ولا أحد يعرف عنهما شيئاً حتى الآن ، ثم أضاف :

- إنني ياسيدي من جيرانه القدامى ، سكنت البيت مع امرأتي وأولادي حتى يرى الله لنا سبيلا .

انهمرت دموع من عينيه على مصير تلك المرأة الأولى التي مال إلى فكرة الزواج بها .

عندئذ راوده إحساس بمدى قسوة الإنسان وهو يسطو على ممتلكات غيره، يسطو على حياة غيره حتى يكون غنياً ، إنه الحقد الذي يعمي البعض عن الأخوة الإنسانية ، وأن الأرض تتسع للناس جميعا ، ورزقها يكفي ما عليها من كائنات .

ازداد قلقاً على مصير الإنسان من فقدانه القيم الإنسانية ، وأدرك أن

الإنسان يمضي نحو حتفه في أرض محفوفة بالمخاطر ، لكن الحكمة يمكن لها أن تهذبه ، وتجعله منتبهاً إلى أخوَّته الإنسانية مع الناس جميعاً .

بعد سنتين من السعي إلى الزواج ، ودخول عشرين بيتاً لهذا الغرض دون جدوى ، قال له جاره الحانوتي (أيوب) :

- أنت رجل طيب يالقمان ، وقد رأيت امرأة تناسبك .

قال :

- من هي ؟

قال :

- أخت زوجتي

قال لقمان :

- ما اسمها ؟

قال :

- اسمها (سادر) يالقمان وهي عزباء في الخامسة والثلاثين من عمرها.

تقدم لقمان لخطبتها ، وبعد شهر من ذلك غدا لأول مرة زوجا ، لأول مرة يشعر بحالة الارتباط العائلي ، وغدا يتأمل ثنائية العلاقة بين الرجل والمرأة .

لأول مرة يتذوق لذة المشاعر الزوجية ، لذة العشرة الزوجية ، ويدرك كم أن الرجل يتغير عندما يغدو زوجاً ، يدرك الخلاف الهائل بين رجل يسكن إلى المرأة ، ورجل لم ينعم بتلك السكينة .

إنها مرحلة فاصلة في حياة الرجل : إنه فضل آخر من أفضال الله

اللانهائية عليك يا لقمان .

إنها اكتشافات مذهلة يخبئها الله لك حتى يهديك في كل مرحلة جديدة من عمرك اكتشافاً جديداً تطيب ، وتغتني ، وتتجدد به منعرجات تلك المرحلة .

عندذاك بدأ الناس يطرقون بابه ، ويقدّمون له التهاني والتبريكات ، وهو يستقبلهم بالترحاب ، ويقوم تجاههم بواجب الضيافة .

وربطت علاقة عائلية وثيقة بينه وبين (أيوب) الذي أعانه كثيرا ، وشد من أزره حتى تم الزواج .

في مقابل ذلك، اكتشف لقمان جاراً عدواً هو (سيراخ) الذي يقطن قبالة بيته ، لايعرف لقمان لماذا غدا هذا الجار عدواً له ، وغدت زوجته أيضا عدوة لزوجته .

عندما ينهض لقمان من النوم يرى أمورا غريبة في بيته ، فيعرف بأن الرجل مع زوجته قد عقدا سحرا له حتى ينفصل عن زوجته ، وتقول له (سادر) عندما يعود من العمل بأن جارتها ترمي من فوق الحائط أشياء مريبة .

في الصباح الباكر، يصرخ الرجل بصوته الأجش شاتما جاره وامرأته ، لكن لقمان لايرد عليه ، حتى أنه عندما يخرج إلى العمل يرى (سيراخ) محاولا التهجم عليه قائلا له : سبحان الذي جعل من العبد الأسود حراً يمشي في الناس .

يكمل لقمان مسيره دون أن يرد عليه .

ذات يوم بينما كان لقمان في بيته جاءه أيوب مذعورا وطلب إليه العودة فوراً إلى البيت . عندما عاد إلى البيت رأى زوجته في شجار عنيف مع زوجة جاره (سيراخ) .

قالت زوجته :

- تهجمت علي يالقمان ، وصارت تخبط على الباب ، وعندما فتحت ، رفعت كفها لتضربني ، فسبقتها بالضرب ، ولم أدعها تمد يدها إلي .

قال لها لقمان :

- بارك الله بك ياسادر ، خيراً فعلتِ

منذ ذلك اليوم أقسمت المرأة بأنها لن تهدأ قبل أن يطلق لقمان امرأته، وتقول علناً بصوت مرتفع بأنها ستفعل كل شيء حتى يحدث الانفصال بينهما .

في أمسية اجتمع فيها الجيران في بيت لقمان ، وهو مبتسم يبدي علامات السرور بزيارتهم وتبريكهم ، يقدم لهم أطباق الحلوى التي صنعتها حليلته، ويبادلهم أطراف الحديث .

يقول :

- إنما مثل المرأة الصالحة كمثل الدهن في الرأس ، يليّن الرأس ، ويحسن الشعر .

ومثلها كمثل التاج على رأس الملك ، ومثلها كمثل اللؤلؤ والجوهر لا يدري أحد ما قيمته .

ومثل المرأة السوء كمثل السّيل لا ينتهي حتى يبلغ منتهاه ، إذا تكلمتْ أسمعتْ ، وإذا مشت أسرعت ، وإذا قعدت رفعت ، وإذا غضبت أسمعت ، كل داء يبرأ إلا داء امرأة السوء .

قال أحد الجالسين ، وهو شيخ مسنّ :

- يا حكيم ، حللت جاراً لنا ، وقد سبقتك إلينا حكمتك .. ياحكيم ماتعمل الحكمة ؟

قال : الحكمة تحيي القلب الميت

قال الرجل : وثم ؟

قال : تجالس المساكين ، وترتقي بهم مجالس الملوك .

قال الرجل : وثم ؟

قال : تشرف الوضيع ، وتحرر العبيد ، وتؤوي الغريب ، وتغني الفقير .

قال الرجل : وثم ؟

قال : تزيد لأهل الشرف شرفا ، وللسيد سؤددا

قال الرجل : وثم ؟

قال : هي أفضل من المال ، وحرز من الخوف ، وعدّة في الحرب

قال الرجل : وثم ؟

قال : بضاعة حين الربح ، وشفيعة حين يعتري الهول ، ودليلة حين ينتهي اليقين إلى النفس ، وسترة حين لا يستر ثوب .

إذ ذاك تناهى صوت رجل في مقتبل العمر : أي الناس أصبر ياحكيم ؟

نظر لقمان إليه ، واستغرق في صمت

بعد قليل عاد الرجل يكرر قوله... لبث لقمان صامتًا ، ثم بعد حين أجاب:

- صبر لا يتبعه أذى

قال الرجل عينه :

- أي الناس أعلم ؟

قال :

- مَن ازداد من علم الناس إلى علمه

قال الرجل :

- الغنى من المال ؟

قال :

- لا ، ولكن الغني الذي إذا التمس عنده خير وجد ، وإلاّ أغنى نفسه عن الناس .

قال رجل آخر :

- بماذا توصيني يا جار ؟

قال لقمان ، وهو ينظر إليه :

- إذا تكلمت فأوجز ، فإذا بلغت حاجتك ، فلا تتكلم .

قال الرجل : وبأي

قال : إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس ، فتذكر قدرة الله عليك .

قال الرجل : وبأي

قال : اجعل عقل غيرك لك !

قال الرجل : كيف ؟

قال : استشر في حوائجك

قال الرجل : وبأي

قال : إذا احتجت إلى السلطان ، فلا تلح عليه ، ولا تطلبها إلاّ عند الرضا وطيب النفس ، ولا تستعن بمن يغشك ، ولا تطلب من لئيم ، فإنه إن ردّك كان ردّه عليك عيبا ، وإن قضى حاجتك كان قضاؤه عليك منّة .

تناهت نبرات رجل بين الحضور : المرأة بالنسبة لي غامضة رغم أنني تزوجت بعشر نساء . أحيانا تبدو لي حكيمة ، وأحيانا تبدو سفيهة ، لكنني

أدركت بأنها ليست حكيمة ، كما أنها ليست سفيهة !

جاء صوت : أوضح لنا ذلك

أجـــاب : كنت سأوضح لو أنك صبرت قليلاً ، إنها تراوح بين هذا وذاك.

نظر إلى لقمان قائلا : هل لك أن توصيني بالمرأة يا سيدي ؟

قال : لاتطأ أمتك ولو أعجبتك ، وانهِ نفسك عنها وَزَوِّجها .

وليكن حرصك على أن تعدل معك زوجتك عشر معشار حرصك على أن تعدل معها... وحقق لها السكينة أزهارا وبساتين مثل ما ترغب أنت في أن تحقق هي لك السكينة... وليكن الحب سلطانكما، والحكم بينكما... وليكن التنافس بينكما فيه مثل تنافسكما في سائر الأعمال...

إذ ذاك قال رجل آخر ، وهو يعدل في جلوسه : يا حكيم إنني رجل كثير السفر ، فبم توصني في سفري ؟

قال : إذا سافرت فلا تأمن على دابتك ، فإن ذلك سريع في إدبارها ، إلا أن تكون في محل يمكنك فيه التمدد ، وإذا قربت من المنزل أنزل عن دابتك وسر ، ثم ابدأ بعلفها قبل نفسك .

ركن لقمان قليلا إلى الصمت ، ثم مالبث أن أردف : إياك والسفر في أول الليل ، وعليك التعريس ، والإدلاج من نصف الليل إلى آخره . سافر بسيفك وخفك ، وعمامتك ، وكسائك ، وسقائك ، وإبرتك ، وخيوطك ، ومخرزك ، وتزود من الأدوية ما تنتفع به أنت ومَن معك ، وكن لأصحابك موافقا إلاّ في معصية الله .

إياك وسوء الخلق ، والضجر وقلة الصبر، فلا يستقيم لك على هذه الخصال صاحب ، ولا يزال لك من الناس عليها مجانب .

الزم نفسك التودد في أمورك ، والصبر على مرارات الأحوال ، وحسّن مع جميع الناس خُلقك ، فإن مَن حسّن خُلقه ، وأظهر بشره ، وبسطه حظي عند الأبرار .

إذا سافرت مع قوم يابني ، فأكثر استشارتهم في أمرك وأمورهم ، وأكثر التبسم في وجوههم .

كن كريماً على زادك بينهم ، فإذا دعوك ، فأَجِبْهم ، وإذا استعانوا بك أعِنهم .

ثم صمت مرة أخرى ، تناول شربة ماء ، واستأنف يقول : استعمل طول الصمت ، وكثرة الصلاة ، وسخاوة النفس بما معك من دابة أو ماء أو زاد.

إذا استشهدوك على الحق ، فاشهد لهم ، واجهد رأيك لهم إذا استشاروك ، ثم لاتعزم حتى تتثبت وتنظر .

لا تحجب في مشورة حتى تقوم وتقعد وتنام وتأكل وتصلي ، وأنت مستعمل فِكرتك ، وحكمتك في مشورته ، فإن من لم يمحض النصيحة من استشارة سلبه الله رأيه .

إذا رأيت أصحابك يمشون ، فامش معهم ، وإذا رأيتهم يعملون ، فاعمل معهم ، واسمع لمن هو أكبر منك سناً.

إذا أمروك بأمر وسألوك فقل : نعم ،

ولا تقل : لا ،

فإن : لا ، عي ولؤم .

إذا تحيرتم في الطريق ، فانزلوا .

إذا شككتم في القصد فقفوا وتآمروا .

إذا رأيتم شخصاً واحداً، فلا تسألوه عن طريقكم ، ولا تسترشدوه ، فإن

الشخص الواحد في الفلاة مريب ، لعله يكون عين اللصوص ، أو يكون هو الشيطان أيضاً، إلا أن تروا ما لاأرى لأن العاقل إذا أبصر بعينه شيئاً عرف الحق منه ، والشاهد ما لا يرى الغائب .

*   *   *



الفصل التاسع

أحس لقمان بشيء من دفء الحياة العائلية ، وبشيء من الاستقرار الزوجي مع امرأته ، عندها أدرك بأنه مقبل على حياة يكون فيها مسؤولا عن أولاد ، فبدأ يتعلم مهنة النجارة من خلال تردده على مستودع أحد جُواره الذين يعملون في نجارة الأخشاب .

أحب لقمان هذه المهنة ، ومال إليها ، فهو يقوم بنشر الأخشاب ، وصناعة الأبواب والشبابيك ، وصناعة الأعمدة التي تسند أسقف البيوت .

ذات يوم طلب منه صاحب المستودع أن يرافقه لتثبيت بعض الأعمدة والأبواب في أحد البيوت ، فذهب معه لقمان ، وفي أثناء العمل سقط جزء من السقف على لقمان الذي كان يمسك بعمود تحته ، مما أدى إلى فقدانه الوعي .

أعاد الرجل عامله إلى البيت وهو ينزف دماً ، وهناك حضر أيوب مع بعض الجُوار يقدمون شيئاً يخفف عن المصاب .

بعد يومين من الإغماء فتح لقمان عينيه ، لكنه لم يستطع أن يحرك قدمه اليسرى .

أدرك عندئذ يأنها تعرضت للكسر .

لم يملك لقمان شيئا يطبب به قدمه ، وصاحب المستودع أيضا قال بأنه لايملك شيئاً ، فاضطر أن يلجأ مرة أخرى إلى الدين حتى يعالج قدمه ، وينفق على بيته .

ذهب إلى شخص آخر عندما امتنع الشخص الأول من إعطائه شيئاً بسبب التأخر في المرة الأولى ، وحصل على قرض بكفالة (أيوب) .

لبث لقمان ستة شهور طريح الفراش حتى تم جبر قدمه ، واستطاع أن يمشي ، فكان أول ما فعله هو ذهابه إلى المستودع للعمل حتى يفك عن نفسه الديون التي تراكمت عليه من بعض الجوار بمن فيهم (أيوب) الذي كان

يعطيه من حانوته ما يشاء حتى يتعافى ويعود إلى عمله ، ويعطيه الثمن .

استمر عاملاً في المستودع ثلاث سنوات حتى رأى ابنه الأول يفتح عينيه على هذا العالم .

في تلك اللحظة أدرك معنى أن يكون المرء أباً : إنه تحوّ ل جديد آخر يا لقمان يُضاف إلى التحولات المتعاقبة التي يمر بها عمرك .

يشعر بأن كائناً ما قد انفصل عنه ، وعليه أن يولي هذا الكائن عنايته الفائقة حتى يقف على قدميه .

قال لامرأته : أرى أن نسميه (ثاران) ياسادر ، هل توافقين على هذا الاسم ؟

قالت : أجل يالقمان ، أرجو أن يجعله الله خيرا لنفسه ، ولأبويه ، ولأقربائه، ولعموم الناس .

شرع في حالة مراقبة دائمة لمراحل نمو هذا الطفل ، ومع كل مرحلة تجلو له عظمة الله ، دقة الله في الخَلق .

إنه شكلٌ جديد من أشكال محبة الله للإنسان ، إنها لذة الأبوة ، لذة رفع الطفل بين الذراعين ، لذة قرّ ة العين .

إنه سعيد ، وهذه السعادة حققها له الله .

يتأمل جمالية براءة الطفولة ، يتأمل بروز الأسنان الأمامية أولا حتى لا يتألم الطفل ، ثم بروز الأسنان الخلفية ، إنها أسنان لمرحلة مؤقتة يتناول بها طعاماً ليناً حتى تقوى اللثة ، ثم تسقط هذه الأسنان ليهب له الله أسناناً أبدية صالحة لأن تخدمه مدى العمر مهما كان هذا العمر طويلا إن اعتنى بهذه الهبة ، وحافظ عليها .

عندما بلغ (ثاران) عامه الخامس، ولد ابنه الثاني الذي أسماه (نادان).

إنها ذات الجمالية ، بيد أن طعمها مختلف ، إنه الولد الثاني ، قرة العين الثانية ، قطعة الكبد الثانية .

ازداد يقيناً بأن الله لو لم يكن يحب الإنسان لما زيّن حياته بالأطفال .

أمام هذه المسؤولية الجديدة، رأى لقمان أن عمله في النجارة لايفي بحاجاته ، لأن العمل يتوقف في فترات متقطعة يعاني فيها الحاجة ، وأن أصحاب الديون يطرقون بابه كل يوم .

عندئذ أراد أن يتعلم مهنة أخرى لتكون معيناً له في أوقات يكون فيها عمل النجارة متوقفا ، استعان بأيوب حتى يرشده إلى مهنة جديدة ، قال أيوب : لي صديق قديم يالقمان اسمه (قورح) إنه خياط قديم ، وأظنه سينفعك في ما تصبو إليه .

ركب كل واحد حمارا واتجها إلى حيث متجر (قورح) الذي وصلا إليه بعد مسير ساعتين .

عندها اتفق معه أن يعلّمه الخياطة دون أجر ، وبعد ذلك يعمل لقمان لديه سنة دون أجر ، ومن ثم يعمل لقاء أجر .

خلال هذا الشهر ، ولدى عودته مساء من التدريب بدأ لقمان يسدي لصاحب المتجر كل يوم حكمة .

في اليوم الأول ودعه قائلا :

- ليكن أول ما تفيد من الدنيا بعد خليل صالح : امرأة صالحة

نظر إليه الرجل نظرة وقار، وقال بلهجة امتنان :

- سأبقى مَدينا لك يا لقمان طوال عمري بلآلئ هذه الحكمة الثمينة .

في اليوم الثاني ، ولدى انتهاء موعد انصرافه ، لبث الرجل ، وقد تهيأ لسماع حكمة جديدة من لقمان لم يسمعها أحد قبله ، فقال لقمان ، وهو

يودعه : ليس غنى كصحة .. ولا نعمة كطيب نفس .

قال له الرجل بوقار ، وقد بدت عليه علامات رجل قد قبض ثمن بضاعة جمة : إنك تمنحني أكثر مما أستحق .

في اليوم الثالث ودعه قائلاً :

- حملتُ الجندل ، والحديد ، وكل شيء ثقيل، فلم أحمل شيئاً هو أثقل من جار السوء ، وذقتُ المرارة، فلم أذق شيئاً أمرّ من الفقر .

قال له الرجل :

- صدقت يا لقمان .

بدأ الرجل ينتظر المساء فقط ليسمع حكمة جديدة من عامله .

في اليوم الرابع تهيأ الرجل لسماع حكمة جديدة تكون منارة له في حياته، فنظر إليه لقمان ، وهو يمدّ خطاه للخروج قائلاً: لا ترسل رسولاً جاهلاً، فإن لم تجد حكيماً ، فكن رسول نفسك .

في اليوم الخامس ، وفي ذات الوقت نظر إلى الرجل فرآه مرتعدا وقد تهيأ في حالة استعداد تامة لتلقي الحكمة الجديدة ، فقال له لقمان : ما لي أراك ياصاحبي لاتتصرف عندما ينتهي موعد عملنا ؟

فقال الرجل وهو مايزال في حالة استعداد لتلقي الحكمة الجديدة : يالقمان ، إني ألبث ساعتين بعد ذهابك ، أشرد بأمر الحكمة الجديدة حتى أستطيع أن أستوعبها ، عندذاك فقط يمكنني الخروج .

قال لقمان وهو يهم بالمغادرة : احضر الجنائز ولا تحضر العرس ، فإن الجنائز تذكرك الآخرة والعرس يشهيك الدنيا .

٦- كيف تطاول على الناس ما يوعدون ، وهم إلى ما لا يوعدون سراعا يذهبون .

٧ - لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتي بغتة .

٨ - مَن أنصف الناس في نفسه ، زاده الله تعالى بذلك عزا .

٩ - استعذ بالله من شرار الناس ، وكن من خيارهم على حذر .

١٠ - إذا رأيت الخاطئ فلا تعيره ، واذكر ذنوبك فإنما تُسأل عن عملك .

١١ - لا تضحك من غيرعجب ، ولا تمش في غير أرب ، ولا تسأل عما لا يعنيك .

١٢ - إن الذهب يجُرب بالنار ، والعبد الصالح بالبلاء ، إذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمَن رضي فله الرضا ومَن سخط فله السخط .

١٣ - لا تُذهب ماء وجهك بالمسألة ، ولا تشق غيظك بفضيحتك ، واعرف قدرك تنفعك معيشتك .

١٤ - إن الناس قد تطاول عليهم ما يوعدون ، وهم إلى الآخرة سراعا يذهبون .

١٥ - إن كنت تشك في الموت فلا تنم ، فكما أنك تنام ، كذلك تموت ، وإن تشك في البعث فلا تنتبه ، فكما أنك تنتبه بعد نومك فكذلك تُبعث بعد موتك .

١٦ - استعن بالكسب الحلال على الفقر ، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة في دينه ، وضعف في عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الثلاثة استخفاف الناس به واحتقارهم لحاله .

١٧ - لا تحقرن من الأمور صغارها ، إن الصغار غدا تصير كبارا .

١٨ - إياك والكذب ، فإنه يفسد دينك ، وينقص عند الناس مروءتك فعند ذلك يذهب حياؤك وجاهك ، وتهان ولا يُسمع منك إذا حدثت

ولا تُصدق إذا قلت .

١٩ - ما شيء أبل للجسم من اللهو .

٢٠ - الموعظة تشق على السفيه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير.

٢١ - إن طول الجلوس على الحاجة يتجزع منه الكبد ، ويورث الباسور ، ويصعد الحرارة إلى الرأس ، فاجلس هوينا وقم هوينا .

٢٢ - إن طول الوحدة أفهم للفكر ، وطول الفكر دليل على طريق الجنة .

٢٣ - إن من الكلام ما هو أشد من الحجر وأنفذُ من وخز الإبر وأمر من الصبر وأحر من الجمر ، وإن من القلوب مزارع ، فازرع فيها الكلمة الطيبة فإن لم تنبت كلها نبت بعضها .

٢٤ - لم أجد أثقل من كلمة السوء ترسخ في القلب كما يرسخ الحديد في الماء .

٢٥ - غضب العاقل في قوله ، وغضب الجاهل في فعله

٢٦ - أحزم الحازمين مَن عرف الأمر قبل وقوعه فاحترس منه .

٢٧ - الحلم هو أن تعفو عمن ظلمك وأن تدفع السيئة بالحسنة .

٢٨ - ينبغي للعاقل أن يكون في أهله كالصبي ، وإذا كان في القوم وجد رجلا .

٢٩ - الإخوان ثلاثة : مخالب ومحاسب ومراغب ، فالمخالب الذي ينال من معروفك ولا يكافئك ، والمحاسب الذي ينيلك بقدر ما يصيب منك والمراغب الذي يرغب في مواصلتك بغير طمع .

٣٠ - لاتضع برّك إلا عند راعيه .

قبل أن ينصرف لقمان ، دنا منه الرجل قائلاً : أريد أن أعرف أمراً حيّرني ؟

قال لقمان : ماهو ؟

قال الرجل : كيف أعرف بأنني من أهل الجنة ، أم من أهل النار ؟

قال لقمان : سل نفسك : هل أنا محب ، هل أنا أمين ، هل أنا صادق ، هل أنا عفو ، هل أنا منتج ؟ .

السؤال الأول الذي تطرحه على ذاتك هو : هل أنا محب ؟ هل لدي مقدرة على المحبة ، وهل المحبة تجاه العالم تغلب البغض لدي أم أن البغض تجاه العالم يغلب المحبة .

ابدأ من ذاتك ، هل تحب ذاتك ؟

ثم انظر إلى تاريخ علاقتك مع ذاتك ، هل أحسنت إليها في هذا التاريخ أم أسأت إليها ، وهذا الاسم الذي تحمله هل استطعت أن تجعل الناس يذكرونه بسوء ، أو يذكرونه بطيب .

انظر إلى مرآة ذاتك ، هل أنت محب لذاتك أم مبغض لها ، كم مرة أهنت ذاتك وجرحتها فيك وفي الناس ، كم مرة وقفت ذليلا في الناس وفيك .

ثم انظر كم من مرة قدمت فيها أعمالا صالحة فخرت بها فيك وفي الناس ، كم من صلح لم يكن ليصلح لولاك ، كم من عسر لم يكن لييسر لولا تدخلك ، كم من خصمين أصلحت بينهما ، كم من سائل أعطيته سؤله .

انظر بعد ذلك إلى علاقاتك بالناس من حولك ، وابدأ بالمقرّبين ، ثم إلى مَن هم أبعد إلى أن تنتهي بالعالم .

أنظر إلى أهلك ، إلى أقربائك ، إلى جوارك ، ثم إلى العالم الكوني من حولك ، كم من أفراد العائلة على خصام معك ، وأنت على خصام كم

فرد منها ، ثم إلى أقربائك وجوارك والعالم ، هل العالم بنظرك هو عدو لك أم محب لك ، ولاتبغض أحدا فيه ، هل إذا نُصبت والياً على العالم ستعاملهم جميعا كأسنان المشط وستنجح في النظر إلى أعدائك وكأنهم أولياء ، وتحسن أول ماتحسن إليهم ، أم ستقتلع بعض الأسنان التي تراها غير صالحة لأن يُمَشَط بها .

يمكن لك أن تحصي هذا كله فترى إن كنت شخصا يحب أكثر مما يبغض أم أنه يبغض أكثر مما يحب .

السؤال الثاني الذي تطرحه على ذاتك هو : هل أنا أمين ؟

ثم انظر إلى مواقف الأمانة التي تركتها ، كم مرة أديت الأمانة كاملة إلى أهلها ، كم مرة خنت الأمانة وألحقت الأذى المادي والمعنوي بمن ائتمنك سواء على نفسه أو ماله أو عرضه .

السؤال الثالث الذي تطرحه على ذاتك هو : هل أنا صادق ؟

انظر إلى ذاتك في مرآة ذاتك ، هل أنت شخص صادق ، أم شخص كاذب، عندما تتحدث هل يغلبك الصدق أم يغلبك الكذب ، هل تجد في ذاتك ميلا إلى الصدق أو ميلا إلى الكذب ، وهل كذبت في تاريخك أكثر مما صدقت ، أم أنك صدقت أكثر مما كذبت .

السؤال الرابع الذي تطرحه على ذاتك هو : هل أنا عفو ؟

انظر إلى مساحات العفو في عمرك ، كم مرة عفوت عمن كانوا يستحقون عقابا منك، بيد أنك عفوت عنهم ، عفوت عن مالك وعرضك وبدنك وسمعتك .

هل كنت في ذاك التاريخ شخصا يسامح أكثر مما يعاقب ، أم يعاقب أكثر مما يسامح .

السؤال الخامس الذي تطرحه على ذاتك هو : هل أنا منتج ؟

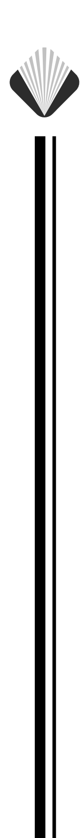
انظر إلى صنعتك في الحياة ، هل تتقن صنعتك ، هل تقدم شيئا من خلال صنعتك لنفع الناس ، هل أنت شخص نافع في صنعتك تغتنمها في سبيل عون الناس ، أم أنك شخص ضار تغتنمها في سبيل استغلالهم والاحتيا ل على حاجاتهم لديك .

يمكن لك أن تحصي هذه المواقف السلبية والإيجابية وتنظر في كفتَي الميزان .

واسأل نفسك قبل أن تُسأل : هل أستحق أن أكون من أهل الجنة جزاء لذاك التاريخ الصالح الذي كنت أنا بطله ، أم أستحق أن أكون من أهل النار عقاباً لذاك التاريخ المهين الذي كنتُ أنا محوره .

ثم إذا طُلب منك أن تكون عادلاً بحق نفسك ، هل ستقودها إلى الجنة ، أم ستقودها إلى النار .

* * *



الفصل العاشر

أحس لقمان بشيء من الطمأنينة على مستقبل ولدَيه ، فهو يملك مهنتين، وبنيته قوية ، وسوف يستطيع أن يعبد اللّه أكثر من خلال العمل ، إنه يريد أن يعيش عزيزا في الحياة ، لا ذليلا ، يريد أن يُسأل أكثر مما يَسأل ، يريد أن يعطي ، أكثر مما يُعطى . فما الفائدة إذا لبث الشخص في صومعة مغلقة يصلي فيها كل عمره ، ما نفع المجتمع من هذا الشخص الذي يعيش عالة على نتاج الآخرين .

عندما تُقدم عملا طيبا للناس يالقمان ،فإنك تعبر عن شكرك للّه ، تعبر بأنك استطعت أن تقدم شيئا مجديا لعباده ، وهنا أيضا عليك أن تشكره لأنه قدّرك على القيام بهذا العمل ، وهداك حتى تقوم به .

كم تشعر بحالة الرضى عن نفسك يالقمان عندما يسيل عرق من بدنك وأنت تقوم بعمل شاق لتقدم لقمة طيبة لأهلك ، لنفسك ، حتى لحيوان أولاك اللّه أمره .

عليك أن تعرق يالقمان ، كما عليك أن تبرد

عليك أن تجوع ، كما عليك أن تشبع

عليك أن تتذوق الداء ، كما عليك أن تتذوق العافية .

عندما بلغ (ثاران)عامه الخامس عشر قال لأبيه ذات صبيحة وهو يهم بالخروج من البيت إلى متجر الخياطة : يا أبي لقد أحببت مهنة الخياطة ، وأريد أن أتعلمها .

عندئذ خطرت فكرة الاستقلال في العمل للقمان ، نظر إلى ابنه

وقال : سوف أنظر في الأمر يابني .

في اليوم التالي وقبل العودة من العمل إلى البيت ، عرج في طريقه إلى (أيوب) .

رآه حزيناً في حانوته .

قال لقمان :

- أراك حزيناً ياصاحبي .

أجاب أيوب :

- حزني على ولدي العاق يا لقمان ، بلغ العشرين من عمره ومازال لايشعر بمسؤولية تجاه البيت ، غداً عندما أموت ، سوف يحل مكاني، وأخشى على أمه وأخواته .

قال لقمان :

- أنت المسؤول يا أيوب ، الطفل بالنسبة للأب كالعجينة بيد العجان ، يفصل رغيفه كيفما شاء .

قال :

- كيف يالقمان ؟

قال :

- كل ولد له طريقة للتعامل معه ، أحياناً يحتاج الولد إلى شيء من الخوف من أبيه ، أضربه يا أيوب بلسانك قبل يدك... وبنظرات عينيك قبل صفعات يديك ضرباً غير مبرح حتى تُشعره بشيء من هيبتك عليه ، فهذا للولد يا أيوب كالسماد للزرع ، عليك ألاّ تضربه من أجل الضرب ، بل من أجل أن يشعر ببعض الخوف من رب البيت ، فإن عدم خوف الولد من رب البيت يؤدي به إلى المهالك .

عندما لايخافك ابنك يا أيوب عليك أن تخاف عليه كثيرا ، وعندما لاتحترمك امرأتك ، عليك أن تخاف عليها كثيراً .

إذذاك قال أيوب :

- ومتى على رب البيت أن يخاف على نفسه كثيراً ياحكيم؟

صمت لقمان قليلاً ثم قال :

- عندما لايخاف مقام ربه .

بعد ذلك قال إنه جاء يستشيره في فكرة إيجار محل يتخذه للعمل مع ابنه ثاران لمهنة الخياطة .

قال أيوب :

- فكرة حسنة يالقمان .

عندها رأى المحل الذي يتخذه للخياطة مع ابنه ، واتفق مع صاحبه على تأجيره، أخبر معلمه (قورح) بذلك واستأذنه ترك العمل .

قال :

- سوف أعمل ثلاثة شهور أخرى عندك يا معلمي حتى ترى لك عاملا يحل مكاني .

قال قورح :

- يعز علي الابتعاد عنك يالقمان وقد خبرت عنك الأمانة والحكمة والجد في العمل ، لكن مسؤولية إعالة أسرة تحتاج إلى مردود أعلى مما تحصل عليه عندي ، وأنا أعلم حجم الديون التي تراكمت عليك، وتعجز عن سدادها . أسأل الله أن يوفقك في عملك يالقمان ، ويبارك في محلك الذي اتخذته لهذه المهنة .

قال لقمان :

- وإني كذلك يامعلمي أسأل الله أن يجعل لنا فيه قسمة طيبة .

سنة بعد سنة، غدا الولدان يتعلمان مهنتي النجارة والخياطة من أبيهما، فيعيناه ، وهو يرقبهما ويشعر بحبور لأنه استطاع بفضل الله أن يقدم إلى هذا العالم شخصين يعملان .

إنه الآن شخص يعيش في الحياة ، يخوض مراحلها ، يتعرف جوانب جديدة لم يكن يخبرها .

الأبوة ، يالها من كلمة مفعمة بعوالم غنية ، إنها إشراقة جديدة على الحياة من نافذة جديدة .

إنك يالقمان تشعر بمسؤولية نحو الحياة ، هذه المسؤولية التي تحمل خصوصية معاني كلمة الأبوة .

كنت في السابق صاحب بيت فارغ لا أحد فيه ، الآن غدوت رب بيت ، رب أسرة .

الآن أولاك الله مسؤولية أن تربي ولدين ، أن تطعمهما ، ترشدهما إلى نهج الإيمان ، تؤدبهما ، أن تتلقى هبة الله ، وتحسن إليها كما أحسن الله إليك ، أن ترفع نظرك إلى السماء وتقول : ها أنذا قمت بكل ما استطعت حتى أحسن إلى هذه الهبة .

وتعود إلى الوراء حتى ترى مواقفك موقفا موقفا في تلك المراحل التي مر بها أولادك وكنت واقفا عليهم تبذل كل جهودك المادية والمعنوية في سبيل الإحسان إليهم وفي سبيل أن تحصل على براءة من ربك نحوهم .

وإن خفقت جهودك يالقمان ، سيكون لك ثواب الإخلاص في السعي ، سيكون لك أجر تقديم موعظة ، أجر إطعام لقمة ، أجر كساء كسوة ، أجر سهر ليلة ، أجر حتى بسمة وأنت تبتسمها ، أجر حتى قبلة وأنت تضعها على وجه هذه الهبة التي وهبها الله لك .

عندما عسعس الليل ، ورقد الولدان ، أخبرته (سادر) بأنها تعاني آلاماً شديدة في بطنها ، وتشعر أحياناً أن قلبها يهبط بسرعة لاتحتملها .

أوصاها أن تأخذ قسطاً من الراحة ، ولاتبذل أي جهد حتى تتعافى .

ذات يوم قال له ابنه (نادان) الذي بلغ عامه الثاني عشر : يا أبي أريد

أن أعرف منك أمرا

قال : نعم يا بني

قال : كيف أستطيع أن أرضي الناس جميعاً

لم يجبه لقمان ، وفي صبيحة اليوم التالي طلب أن يصطحبه في طريق قبل ذهابهما إلى العمل في محل الخياطة .

قال نادان : أجل يا أبي

طلب إليه لقمان أن يحضر الحمار.

أسرع نادان في إخراج الحمار إلى الطريق ومضيا بعيدا عن الديار .

بعد شيء من المسير والابن ينتظر ما يقول حتى يعرف إلى أين يتجه مع أبيه، أوقف لقمان الحمار ، وبعد قليل ركبه داعيا الابن أن يمشي بجانبه في الطريق .

مشى نادان وهو ينتظر ما يقوله ، ولقمان يمضي راكباً الحمار دون أن يتحدث بشيء .

بعد مسير طويل اقتربا من بعض الناس كانوا يجلسون تحت فيء شجرة ، مرّا أمامهم والقيا عليهم السلام .

أجابوا عن سلامهما ، ثم قال أحدهم : أما نظرتم إلى هذا الشيخ القاسي، يركب الحمار دون أن يأبه بابنه الصغير الذي يمشي على قدميه .

التفت الابن ليجيب عنه ، فمنعه لقمان وأكمل المسير .

بعد غيابهما عن ذاك الجمع أوقف لقمان الحمار ، وطلب من ابنه أن يركب بدلا عنه .

تردد الابن ، إلا أنه أمره أن يفعل ذلك ، فاضطر إلى ركوب الحمار تاركا أباه العجوز يمشي بجانبه .

مضيا في الطريق حتى اقتربا من شخصين يسيران في ذات الطريق ، وعندما مرّا من أمامهما وتبادلوا السلام فيما بينهم ، سمعا صوت أحدهم يقول لصاحبه : أنظر .. أنظر ، ياللعجب ، هذا الابن العاق ركب الحمار تاركا أباه الشيخ يمشي على قدميه دون أن يكرمه .

أراد الابن أن يجيب عنه فمنعه الأب وطلب أن يمضي بالحمار في طريقهما.

بعد مسير آخر طلب إليه أن يقف ، وعندذاك ركب هو الآخر الحمار مع ابنه ، ومضيا في الطريق .

مرّ ا بجانب جمع من الناس يجلسون أمام بيت ، ألقيا عليهم السلام .

أجابوا عن السلام ، ثم ما لبث أن قال أحدهم : يا لقسوة قلبيهما ، ركبا معا على هذا الحمار المسكين دون أن يرأفا به .

بعد بعض المسير طلب من ابنه أن يوقف الحمار لينزلا ويمشيا إلى جانبه.

مشيا إلى جانب الحمار حتى مرّ ا بثلاثة رجال يمضون في الطريق ، ألقيا عليهم السلام ، وبعد أن أجابوا قال أحدهم لصاحبَيه :

- أما رأيتم هذا العجب ، معهما حمار ولا يركبانه .

عندذاك وقف الابن وقال لأبيه :

-الآن أجبتني خير إجابة عن سؤال البارحة يا أبت .

* * *



الفصل الحادي عشر

عندما بلغ ابنه (ثاران) العشرين من العمر ، قال له لقمان : أريد أن أختلي بك هذه الليلة ياثاران حتى أعظك .

كانت (سادر) نائمة تعاني آلام الحمل

فرح ثاران قائلا : إنها ليلتي يا أبي .. إنها ليلتي .. الليلة التي طال انتظاري لها ، ثم وقع على كفـَيه يقبلهما ، وراح يغتسل بشكل جيد ، يرتدي ثيابا جديدة ، وحول منتصف الليل تهيأ تماما ودخل على أبيه .

أجلسه لقمان إلى يمينه بالقرب منه وقال : يا بني أريد أن أقول لك كلمات تكون عوناً لك في حياتك

قال ثاران : كم سألتك الموعظة يا أبي إلا أنك كنت دوما تقول لي : في حينها

قال : كنت أعظك في المرحلة الماضية بأفعالي ، أما الآن أصبحتَ في مرحلة عليّ أن أعظك فيها بأقوالي .

قال : إني كلي إصغاء إليك يا أبت .

قال لقمان : يا بني ، إياك والكسل والضجر ، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقا ، وإذا ضجرت لم تصبر على حق .

يا بني ، إن الله أرضاني لك فلم يوصني بك ، ولم يرضك لي فأوصاك بي .

يا بني ، لا تأكل شبعا على شبع ، فإن إلقاءك إياه للكلب خير من أن تأكله.

يا بني ، كل أطيب الطعام ونم على أوطأ فراش .

واعلم يا بني أن المعدة إن امتلأت ، نامت الفكرة وخرست الكلمة وقعدت الأعضاء عن العبادة .

قال الابن وهو في حالة شديدة من الإصغاء :

- أمرك مطاع يا أبي .

قال لقمان بنبرة هادئة وكأنه يهدهده :

- يا بني ، لا تكن حلوا فتبلع ، ولا مرا فتلفظ .

يا بني ، إياك والكذب فإنه يفسد دينك وينقص عند الناس مروءتك ، فعندذلك يذهب حياؤك وجاهك وتهان ولايسمع منك إذا حدّثت ، ولاتُصدّق إذا قلت ، ولا خير في العيش إذا كان هكذا .

ثم بنبرة أكثر هدوءا :

- لا تترك صديقك الأول فلا يطمئن إليك الثاني .

اتخذ ألف صديق والألف قليل ، ولا تتخذ عدوا واحدا والواحد كثير .

يا بني ، ليكن مما تتسلح به على عدوك ، فتصرعه المماسحة [1] ، ولاتراو له بالمجانبة فيه ، فيبدو له ما في نفسك ، فيتأهب لك .

يا بني ، إن العالم الحكيم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار ، وإن العالِم الأخرق يطرَد الناس من علمه بالهذر والإكثار .

لأن يضربك حكيم ، فيؤذيك ، خير من أن يدهنك الجاهل بدهن طيب .

واعلم يا بني أن الإنسان ثلاثة ...

قال الابن : نعم يا أبت

قال : ثلث لله ، وثلث لنفسه ، وثلث للدود .

فأما ما هو لله ، فروحه

وأما ما هو لنفسه ، فعمله

١- المصادقة والتسامح

وأما ما هو للدود فجسمه .

يا بني ، شاور مَن جرب الأمور ، فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء، وأنت تأخذه مجانا .

قال ثاران : سمعا وطاعة يا أبت ..

قال بنبرة مرتفعة بعض الشيء :

- يا بني الزم الحكمة تكرم بها ، وأعزها تعز بها ، واعلم أن الشح وسوء الخلق وكثرة طلب الحوائج من علامات السفهاء .

ثم أردف وهو ينظر إلى ابنه بإمعان شديد : لا تعتذر إلى مَن يحب أن لا يرى عذرا ، ولا تستعن بمَن لا يحب أن تظفر بحاجتك ، واعلم يا بني أن مَن صبر على احتمال الناس سادهم .

قال ثاران : أجل يا والدي

قال :

- أحسن الناس مروءة وأدبا مَن إذا احتاج نأى ، وإذا احتيج إليه دنا . وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء ليكذبوك ، ولا بالباطل عند الحكماء فيمقتوك . مَن حدث لمن لا يستمع لحديثه كان كمن قدم حطامه لأهل القبور .

يا بني إذا وقع لك ما تحب وما تكره ، فاحذر أن يقع في قلبك أن صلاحك في غير ما وقع لك . لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته إلا جعلت في الضمير أن ذلك خير لك .

يا بني ، إذا صمت فصم بقدر ما يقطع شهوتك ، بحيث لا تضعف عن أداء الصلوات التي هي أعظم من الصيام ، لأن الصوم شرع لتهذيب الأخلاق والتخفيف من ثورة الشهوة ، فهو رياضة روحية ، أما الصلاة فلإصلاح

النفوس التي هي مأوى كل الشرور ومصدر كل هوى ، وما عُبِد إله أبغض إلى اللّه من الهوى .

يا بني ، تنافس في طلب الأدب فإنه ميراث غير مسلوب ، وقرين غير مغلوب ، ونفس حظ في الناس مطلوب .

يا بني كَذَب مَن قال : الشر يطفئ الشر ، فإن كان صادقا فليوقد نارين ثم ينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى . إنما يطفئ الشر الخير كما يطفئ الماء النار .

صمت لقمان قليلا ، تناول شربة ماء ، حمد اللّه على نعمة الماء ، لبث بعض الوقت في حالة من السكون والابن مايزال في وضعه لايبدي أي حراك حتى يستمر الأب في الحديث الذي يخرج منه بتناغم كأنه ينشد أنشودة، ويرى بأنه محظوظ هذا اليوم لأن أباه - المعروف عنه قلة الكلام - قد انشرح صدره لحديث أخذ يمتد .

فقال لقمان : يا بني ، إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم ، فلم يبق ما جمعوا ولا من جمعوا له ، وإنما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل ، ووعدت عليه أجراً ، فأودعه عمله واستوف أجرك ، ولاتكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمنت ، فكان حتفها عند سمنها ، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها وتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر ، واعلم أنك ستسأل غدا إذا وقفت بين يدَي اللّه ، عن أربع : شبابك فيما أبليته ، وعمرك فيما أفنيته ، ومالك مما اكتسبته وفيما أنفقته، وعلمك ماذا عملت فيه، فتأهب لذلك وأعدّ له جواباً .

يا بني ، أكلت الحنظل وذقت الصبر فلم أر شيئاً أمر من الفقر ، فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس كيلا ينقصوك ، ولكن اسأل اللّه تعالى من فضله ، فمَن ذا الذي سأل اللّه فلم يعطه ، أو دعا فلم يجبه ، أو تضرع فلم يكشف ما به .

ينظر الابن إلى أبيه وهو يشعر بعظمة الحكمة ، يشعر بقوة حاجة الإنسان إليها ، ومن جهة أخرى ينتابه إحساس لأول مرة بمدى حرص هذا الأب عليه، هذا الحرص الذي جعله يقعد في دجى الليل من أجل أن يعظه . يدرك للتو بأنه الرجل الوحيد الأقرب إليه من كل هذا العالم ، الرجل الوحيد الذي يحرص عليه أكثر من كل هذا العالم .

فاضت عيناه بدموع غزار وانكب على يديه يقبلهما ، ثم ما لبث أن اعتدل في جلوسه فطفق لقمان يقول :

إياك والسؤال يا بني ، فإنه يذهب ماء الحياء من الوجه .

استعذ بالله من شرار الناس ،

ثم أردف بعد صمت : كن من خيارهم على حذر .

قال الابن وهو يهز رأسه : أجل يا أبي .

يابني ، لاتتسرع إلى رفع موضع في المجلس ، فالموضع الذي ترفع إليه خير من الموضع الذي تحط منه .

يا بني ، الآن أوصيك بخصال تقربك إلى الله وتباعدك من سخطه.

قال ثاران : سمعاً وطاعة يا أبي

قال لقمان وهو يغمره بنظرات أبوية :

الأولى : أن تعبد الله ولا تشرك به

الثانية : الرضا بقدر الله فيما أحببت وكرهت .

يا بني ارج الله عز وجل رجاء لا ينسيك عدله...، وخف الله مخافة لا تيأس فيها من رحمته .

لبث لقمان ينظر أمامه صامتا إلى أن أحس بأن ابنه غدا مهيأً لسماع المزيد ، وغدا في حالة انتظار لما سيصدر منه ، فأردف حينئذ :

إياك والتقنع ، فإنه مخوفة بالليل ، مذمة بالنهار .

إذا افتخر الناس بحسن كلامهم ، فافتخر أنت بحسن صمتك .

يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح : كيف أنتن ؟

فيقلن : بخير ، إن تركتنا .

واعلم يابني أن مَن يَرحم يُرحم ، ومَن يصمت يسلم ، ومَن يقل الخير يغتنم ، ومَن يقل الشر يأثم ، ومَن لا يملك لسانه يندم .

ثلاث من كنّ فيه استكمل الإيمان يا بني : مَن إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق ، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له .

أردف : الشجاع لا يعرف إلاّ في الحرب ، والكريم إلاّ في الحاجة ، والحليم إلاّ في الغضب .

يا بني جالس الحكماء وارض بقولهم ، تزدد حكمة

يا بني اقصد للحاجة ولا تنطق بما لا يعنيك ، ولا تكن مضحاكا من غير عجب ولا مشاء في غير أدب .

كن يا بني :

لين الجانب ، قريب المعروف ، كثير التفكير ، قليل الكلام إلا في الحق، كثير البكاء، قليل الفرح .

ولا تمازح ولا تصاخب ولا تمار .

واعلم يا بني أن من أخلاق الحكيم السعيد : الوقار

قال الابن : نعم

قال : والسكينة

قال الابن : نعم

قال : والبر

قال الابن : نعم

قال : والعدل

قال الابن : نعم

قال : والحلم

قال الابن : نعم

قال : والرزانة

قال الابن : نعم

قال : والإحسان

قال الابن : نعم

قال : والعلم

قال الابن : نعم

قال : والعدل

قال الابن : نعم

قال : والورع

قال الابن : نعم

قال : والتدبير

قال الابن : نعم

قال : والحذر

قال الابن : نعم

قال : والعفو .

سنوات طويلة كان الابن ينتظر هذه الليلة التي يقول إنها ليلته ، ليلة انطلاقته الحقيقية لاكتشاف الحياة .

بدأ الضوء ينبلج والابن قلق لأن ليلته قد أوشكت على النهاية

فقال لقمان مستأنفاً حديثه وكأنه لم ينقطع عنه :

إن تكلم .. تكلم بعلم..

قال : نعم

قال : وإن قال قال بعلم ..

قال : نعم

قال : وإن صمت صمت بحلم ..

قال : نعم

قال : وإن بغي عليه غفر ..

قال : نعم

قال : وإن قدر ورع ..

قال : نعم

قال : إن سُئل لم يبخل ..

قال : نعم

قال : وإن سأل لم يلحف ..

قال : نعم

قال وإن قال قال بعلم ..

قال : نعم

قال : وإن تعلم أحسن المسألة ..

قال : نعم

قال : وإن أُحسن إليه شكر ..

قال : نعم

قال : إن أسررت إليه لم يخنك ..

قال : نعم

قال : وإن أسر إليك أمنك ،.

قال : نعم

قال : إن أعطاك لم يمن عليك ..

قال : نعم

قال : وإن أعطيته شكرك .

يستمع ممن وعظه، لا ينازع من فوقه ، ولا يحقر مَن دونه ، لا يطلب ما ليس له ، ولا يضيع ماله ، لا يقول ما لا يعلم ، لا يكتم علما عنده ، الناس منه في راحة ، ونفسه منه في عناء ، يحمل نفسه على الحق إن أحبت وإن كرهت العدل حين يحكم ، الصادق حين يقول ، الأمين حين يؤتمن ،العافي حين يُظلم ، المحسن إذا أسيء إليه .

واعلم يا بني أن الفاحش البذيء الشقي :

إن تحدث فضحه الحديث ، وإن عمل أساء ، وإن قعد أضاع ، وإن استغنى بطر ، وإن افتقر قنط ، وإن حزن أيأس ، وإن قدر أفحش ، وإن سُئل بخل،

وإن ضحك نهق ، وإن ذكر غضب ، وإن أُعطي لم يشكر ، وإن كان دونك همزك ،

قال : نعم يا أبي ..

قال : لا حكمته تعينه ، ولا حكمة غيره تنفعه ،

لا ينقضي تعليمه ، ولا يفرغ معلمه ، ولا يسر به أهله ،

لا يصيب إن قال ، ولا يفقه إن قيل له .

يعجبه حكمه وإن لم يوافق الحكماء ، ويعجبه علمه وإن لم يوافق العلماء، يرى أنه محسن وإن كان مسيئا ، لا يقول الحق إلا ليُحمد عليه .

إن كنت عالما تأنف من علمك ، وإن كنت جاهلا سخر منك .

إن أحسنت أشاع عنك أنك مُراءٍ ، إن لنت للناس قال عنك إنك متملق ، إذا حضر أهل الحق شاغبهم ، وإذا تغيب عنهم كان في الباطل .

صمت بعض الشيء ، ثم استأنف قائلا بنبرة أشعرت الابن أنها نبرة الختام :

يا بني ، تعلمت سبعة آلاف من الحكمة ، فاحفظ منها أربعاً ، وسر معي إلى الجنة .

احكم سفينتك ، فإن البحر عميق

خفف من حملك ، فإن العقبة كؤود

أكثر الزاد ، فإن السفر بعيد

أخلص العمل ، فإن الناقد بصير .

يا بني ، سيّد أخلاق الحكمة دين الله تعالى

ومثل الدين كمثل شجرة نابتة

فالإيمان بالله ماؤها، والصلاة عروقها، والزكاة جذعها والتآخي في الله شعبها .. والأخلاق الحسنة ورقها .. والخروج عن معاصي الله ثمارها

ولا تكمل الشجرة إلا بثمرة طيبة

كذلك الدين لا يكمل إلا بالخروج عن المحارم .

* * *



الفصل الثاني عشر

بينما كان لقمان في عمله مساء ، رأى ابنه (نادان) محتقناً يدخل إليه قائلاً : أمي في خطر يا أبي ، أخبرت خالتي ، فحضرت مع عمي أيوب .

تذكر أنها أخبرته بمرضها ، أغلق باب المحل ، وهرع يلاحقه ابنه نحو البيت .

كانت في حالة شديدة من الحمّى ، وتكاد تلفظ الكلمات ببطء .

مسد بظاهر كفه على جبهتها ، تسربت غصة إلى حنجرته ، انهمرت دموع من عينيه .

إنها (سادر) المرأة التي صبرت عليه ، بذلت كل ما تستطيع كي تعينه على مشاق الحياة ، المرأة التي تعرّف من خلالها نصفاً كان مظلماً في الحياة ، النصف الذي يلبث مظلما في حياة الرجل ، وليس بوسع أحد أن يضيئه غير الزوجة .

الآن ، يقول في قرارة نفسه : ماذا قدّم هو لهذه المرأة لقاء كل تلك العطاءات السخية التي وهبتها له :

لاشيء لا شيء ، لا شيء البتة يا لقمان .

للتو أدرك كم أن للمرأة دوراً عظيماً في حياة الرجل ، وفي عمارة الحياة، أدرك كم أن المرأة كائن عذب ومعطاء دون حدود .

كم أن الرجل ليس بوسعه أن يفي المرأة حقها مهما قدّم لها : أجل يا لقمان ، إنها المرأة الصالحة التي هي من النعم الكبرى التي أنعم بها اللّه عليك ، وماذا ستفعل يا لقمان إزاء كل تلك العطاءات السخية التي وهبها اللّه لك غير أن تزداد خشوعا ... غير أن تزداد تسامحا مع الناس ... غير أن تزداد صدقا ... غير أن تزداد محبة ... غير أن تزداد عطاء

لا شيء لديك تقدّمه للّه يا لقمان ، إن كل ما لديك هو ملك للّه وهبه لك.

ليس أمامك ، إن أردت أن تعبر بالأفعال عن شكرك لله ، غير أن تكون نافعا للناس ، وبمقدار ما تقدم من نفع للناس ، فإنك تعبر عن مساحة شكرك لربك ، ولا تنس بأن ذلك أيضا فضل جديد من أ فضال الله عليك، فضل أن منحك مالا ، ثم فضل أن هداك لأن تقدم هذا المال صدقة ، ثم أنه جعل شخصا يحتاج إلى هذه الصدقة وقاده إليك ،لتكسب هذا الأجر ، وليس إلى غيرك .

عندما تأخر الليل ، ذهبت أختها مع زوجها وأولادها إلى البيت .

لبث لقمان ساهرا مع ولدَيه حتى بزوغ الضوء وزوجته تزداد أرقا وحمّى ، قدم لها كل ما يستطيع من أدوية عشبية ، بيد أن ذلك لم يُجْدِها نفعاً .

قالت له مع أنفاس الصبح الأولى : يبدو بأنني سوف أودعكم يالقمان ، ماذا تعرف يا بعلي عن الموت الذي أذهب إليه ؟

مد لقمان كفه إلى كفها ، شبك أصابعه بأصابعها متحدثاً بنبرة هائة :

التصورات والتخيلات التي تسبح في أذهاننا تعجز أن تخلّف الرائحة التي تخلّفها الأفعال ، إنها لا تخلّف أكثر من رائحة التصورات والتخيلات ، كما أن الأفعال لا تخلّف إلاّ رائحة الحقائق الغارقة في واقعيتها، وأنه لمن الخطأ الفادح ظننا شم روائح الواقع من أفعال لم تقع إلاّ في أذهاننا .

عندما نتخيّل واقعاً لم يقع فنقنع أنفسنا بأنه واقع كبديل عن الفعل الذي لم نقدر عليه ، فإننا مع أول إشارة للواقع ندرك صدمته وأننا طُردنا من عالم من خيال .

الخيال هو من صناعة أفكارنا ، ولكن الواقع هو من صناعة أحداث تقع بغتة . ومن هنا يكون مفهوم البعض لمسألة الموت وما بعد الموت مفهوماً خيالياً بحتاً لا صلة له بالواقع لأنه لم يقع عليه . وهذه هي ذروة المشكلة من خوف هذا البعض من الموت إلى درجة الرعب ، بل إلى درجة الموت رعباً لأن

ما يتخيله هذا البعض هو : ظلام قبر مهجور ، والاستلقاء في حفرة أبدية تحت التراب . ويذهب الخيال بفريق متفائل من هذا البعض إلى تصوير الجنة وتصوير نفسه فيها ، فهي عالم ممل لأن كل شيء موفور ، ولا عمل سوى الطعام والشراب والجماع ، أي أن الإنسان هناك يبلغ ذروة الشلل .

المفهومان ليس لهما أي صلة بالواقع لأنهما لم يقعا فيتخيّل المتخيل بأنهما وقعا وهو يعيشهما قبل أن تطأ قدمه القبر وقبل أن تنفتح عيناه في جنة . فالإنسان تتغير أفكاره من سنة إلى سنة ، ومن عقد إلى عقد ، وكذلك يتغير خياله لأن لكل مرحلة عمرية أفكارها وأحلامها وخيالها... هذا كله خلال عمر قصير لا يتجاوز قرناً واحداً من الزمن وفي واقع حياتي مختلف عن أي واقع آخر فيما بعد الحياة الدنيا . ولعل الإيمان يقدّم للمؤمن شيئاً من هذا الواقع الذي لم يقع لأنه يؤمن بأن ما أتى من اللّه هو واقع وليس خيالاً إلهياً. فهو إذن يؤمن بأنه الآن بين يدَي ربه ليكون تحت تصرف ومشيئته ربه، وكذلك فهو سيتجه إلى يدَي ربه ليكون تحت تصرف ومشيئة ورحمة ربه ، فهذا الرب ذاته بإمكانه أن يجعل حياته الدنيا أشد عليه وأضيق من أي قبر ، وهو لا يستطيع أن يتحرك إلاّ بمشيئة اللّه وما قدّره عليه اللّه ولا يستطيع أن ينظر نظرة أو يخطو خطوة لم يقدره اللّه عليها ، فالإنسان في محراب الإيمان ليس حراً طليقاً بعيداً عن متناول إرادة اللّه مادام لم يمت ، وأن اللّه غير قادر عليه إلاّ إذا مات وارتفعت روحه إلى السماء ، بل إن اللّه قادر أن يفعل به ما يشاء وهو حي يرزق في الحياة ، وقادر أن يرفعه إليه روحاً وجسداً حياً لو شاء.

ولذلك فإن اللّه تعالى دعا الناس ليظنوا به خيراً ، وهو الذي يغفر لهم ذنوبهم حتى لو كانت كزبد البحر ، وألاّ يقنطوا من رحمة اللّه الغافر للذنوب جميعاً. بهذا الإيمان الساطع في النفوس والقلوب ياسادر ، فإن الإنسان الحي هو ذاته الإنسان الميت في خضوعه لقدرة اللّه ، فلا شيء يتغير في هذه العلاقة .

قدرة اللّه على الإنسان لاتكون أكثر لدى موته ، بل هي القدرة ذاتها وهو الإنسان الخاضع ذاته لتلك القدرة الإلهية ، وما يتغير هو أن هذا الإنسان الذي وصل إلى الحياة بعد مروره بمراحل ما قبل الحياة ، فإنه يدخل مرحلة جديدة لا نعرف شيئاً عنها ، وكما أن الإنسان انسجم مع حياته الدنيا ، فلماذا لايكون الراحل منسجماً في المكان الذي حل فيه ، والإنسان هو دائم القلق من مكان سيتجه إليه لأنه يخاف ألاّ ينسجم معه ، ولكن لديه القدرة الكافية لهذا الانسجام ، فرجل سيواجه شهرين من السجن بعد سنة ، قد يعيش سنة كاملة من اللا استقرار والتوتر والتصورات السلبية عن وضعه في السجن ، ولكن عندما يعيش واقع هذين الشهرين ، سينسجم وسيكتشف عالماً جديداً عليه ويكتشف كم كان ساذجاً وسطحياً في كل ذاك التوتر والتخيل طوال سنة كاملة ، فهو الآن يعقد علاقات جديدة بواقع جديد ، وفيما بعد قد يتردد إليه لزيارة أصدقاء ، إنه بمحض إرادته هذه المرة يقوم بزيارة ذاك المكان الذي سبّب له كل ذاك الرعب من خلال تخيله له . ومَنْ قال بأن رجلاً مات منذ ألف سنة هو غير منسجم في المكان الذي فيه وكان قد انسجم مع الحياة من خلال عشرين سنة فقط .

إن حسن الظن باللّه وبأن مغفرته وسعتْ كل شيء يقدِّم نفحات مشرقة لأهل ذاك الخيال السلبي القاتم .

إن عدم حسن الظن باللّه و برحمته الواسعة يعزّز لدى تلك الفئة من الناس الرجاء بعدم لقاء اللّه ، لأنها لاترى من هذا اللقاء غير أهوا ل وعذاب ومصير قاتم . وإذا كان الواقع كذلك فإن الناس جميعاً لن يرجوا لقاء ربهم، إذ لايوجد بشر خلا من ذنوب ، ولايحلو لإنسان أن يُواجَه بسيئات أعماله ، لكن اللّه عندما خلق الإنسان شاء أن يغفر له ومنحه فرصاً تغسله من ذنوبه وكأن لا ذنب له إطلاقا ، كمن يرفع عن نفسه جنابة فيمسي طاهراً كأنه ما كان على جنابة ،

في حقيقة الأمر ياحليلتي إن الموت هو يقظة من نوم الحياة ، لأن ما بعد

الحياة هو أكثر صفاءً وأكثر جمالاً إلى درجة أن الإنسان ذاته يكون في هيئة أقوى وأجمل وأنضر حتى يستطيع استقبال يقظة الموت بقوة ، وعند ذاك سينتبه بأنه كان نائماً وأن الحياة التي ظنها مليئة بالحيوية وكان خائفاً من فراقها تحولت إلى حلم بالنسبة لحقيقة اليقظة الكبرى ، والإنسان لايلمس تلك اليقظة الكبرى إلاّ إذا مرّ بالموت حتى يُعاد تشكيله ويكون في هيئة يقظة تؤهله لينظر إلى الله ، تؤهله ليعرف الحقائق الكبرى عن حقيقته كإنسان.

اللحظات الأولى للموت تنبه بأنه كان نائماً ، فيدرك بأن نومه في ذاك النوم الطويل كان نوم النوم ، مثل أن يحلم بحلم في حلم .

بعد بزوغ الضوء بقليل لفظت المرأة آخر أنفاسها وهي تشد كفها بكفه وتلفظ آخر كلماتها : أسألك يا لقمان أن تسامحني إن كنت قصّرت في حقك .

إنها تجربة موت جديدة تعيشها يا لقمان ، موت أقرب الناس إلى حياتك،

موت شريكة العمر ، ورفيقة الدرب ، وأنيسة الوحدة ، موت مَن أضاءت لك نصف الحياة .

بعد عشرة أيام من العزاء ، نظر لقمان إلى ضرورة أن يمضي في الأرض، يتعرف الأراضي والديار ، يشم هواء جديداً عليه ، عندئذ سوف يدرك أمورا لم يكن ليدركها لولا ترحاله ، يرى وجوهاً لم يكن ليراها لولا أسفاره ، يدخل بيوتا لم يكن ليدخلها لولا سعيه .

سوف يرى نفسه في الغربة ، ينشر الحكمة في الناس وهو يذهب إليهم في أعمالهم ، وفي ديارهم .

ودع الجيران جاراً جاراً ، حتى (سيراخ) راح يودعه قائلاً : إن كنت سببت أذى لك دون قصد ياجاري ، أرجو منك المعذرة .

قال سيراخ : لاشيء يالقمان مادمت ستغادرنا ، وامرأتك التي اعتدت على امرأتي ذهبت للقاء ربها .

ثم أمضى مع ولدَيه الليل كله في دار أيوب يودعه ، ويودع ابناه خالتهما وأولادها .

في الصباح الباكر أقفل باب بيته وانطلق مع ولدَيه يسير في مناكب الأرض ، يتعرف على أناس ، يصغي إليهم ، يدرك بأن الإنسان لايمكن له أن يستغني عن الإنسان ، يكتشف أهمية الإصغاء إلى عموم الناس على مختلف مشاربهم ومآربهم .

يتحدث إلى شخص سواء في مجلس عام ، أو إليه وحده ، ينظر في ملامح الشخص ، يستقبل كلماته .

إنه يروي شيئا جديدا ، وهو يصغي إلى أمر جديد ، يدرك نعمة الله الكبرى على الإنسان من خلال اللغة ، ثم يدرك كم أن اللغة أمانة لدى الإنسان ، عليه أن يستخدمها بصدق ، أن ينفع بها نفسه ، وينفع الناس .

حتى الجسد لايتجاوب مع الكذب ، حتى الروح تستاء من الرياء ، فلو نطق شخص بكذب ، لابد من ظهور ذلك عليه ، على نبرة الصوت المترددة مهما أراد صاحبها أن يواريها ، على ملامح الوجه ، على حركة الشفتين ، على حدقة العينين ، على حركة اليدين . عندما ينطق الشخص بالكذب ، فإن كل عضو فيه يصرخ : أنا براء منك .. أنت كاذب . وإن تفرست يالقمان بشيء من التركيز على الناطق سوف تلمح شظايا الكذب في كلماته ، سوف تشم رائحة الكذب من نبراته .

الإنسان مؤتَمن على نعمة النطق بالصدق .

إن تحدث بالصدق خرجت الكلمات من حنجرته بقوة ، خرجت تتلألأ كالجواهر ، انفتحت مسامات محياه ، انشرح صدره .

كل كلمة تخرج مبارَكة تشكر ناطقها على أنه أخرجها بصدق .

يتحدث شخص عن معاناته بسبب عدم الإنجاب رغم زواجه من ثلاث نساء ، يتحدث آخر عن نعمة الأبوة التي وهبها له الله .

يدرك أن الأول رجل سريع الغضب ، لم يحتمل المرأة ، فلم تحتمله ، فلو احتمل زوجته ، لاضطرت أن تحتمله . لذلك كلما رزقه الله بزوجة لم يستطع أن يمضي معها سنة واحدة ، كان يريد لامرأته أن تكون كما يشاء ، وقد نسي أنه لايملك هذه الوصاية الكاملة عليها ، نسي أن عليه الإصغاءإليها أيضا ، يشاورها ، يتعامل معها برفق ، لايدقق كثيرا في مجريات الأمور الزوجية، أن يدع لها فسحة من حرية ، لذلك خسر هذا الرجل ثلاث نساء ، ولبث نادما يعاني حرمان الأولاد .

أما الثاني فكان جَلداً صبوراً ، ينظر إلى الأمام في مجريات حياته الزوجية، يتسامح مع زوجته ، يعلمها ، يهذبها برفق ، لذلك لبثت معه وأنجبت له أولادا ، وهؤلاء أنجبوا له حفدة ، وهو راض عن حياته بنعمة الحكمة ، كما أن الأول نادم على قراراته المتسرعة التي خلت من الحكمة .

يمضي زمنا في أرض ، ثم ما يلبث أن يتجه إلى أرض أخرى ، يجوب بلاد الشام ، يقيم في المدن .. في الصحاري .. على حافة الأنهار .

يشكر الله على نعمة الحكمة ، ولايجد شيئا يشكر الله من خلاله سوى الحكمة ، ويرجو أن تكون هذه الحكمة صدقة جارية له في الناس .

ذات ظهيرة وبينما كانوا يستلقون على الأرض تحت فيء شجرة لينالوا قسطاً من الراحة بعد مسير طويل ، انفجرت صرخة من ابنه (ثاران)

انتفض لقمان من غفوته ، وانتفض معه (نادان) .

قال ثاران وهو يمسك ساقه من الأعلى : لسعتني أفعى يا أبي .

نظر لقمان وإذ بأفعى تزحف نحو جمع من القش .

وضع لقمان فمه موضع اللسعة ، وغدا يسحب السم ، بيد أن ذلك لم ينفع، ولفظ ثاران أنفاسه الأخيرة بين يديه .

دفنه هناك ، ومضى في سعة الأرض حاملاً هماً جديداً يسعى إلى نسيانه، وكيف له أن ينسى ابنه البكر الذي لازمه خلال كل تلك السنوات . ثاران، الابن الذي ودعه ولن يلتقيه ثانية .

في السنة العاشرة على غربته ، وهو في بلاد الشام جاءه شخص وقال إنَّ والي البلاد يريد لقاءه .

لم يتأخر لقمان في الذهاب إلى الوالي ، والمثول بين يديه .

قال له الوالي : علمنا عنك الحكمة يالقمان ، لذلك أتينا بك حتى ترى حكما في عقوبتي الزنا والسرقة .

طلب لقمان منه مهلة حتى ينظر في هذا الأمر ويأتي بحكم نافع للناس.

بعد ستة أيام جاء لقمان يعرض بين يدي الوالي مارآه من حكم...

قال الوالي : بارك الله بك يالقمان ، حكم لم يسبقك إليه أحد ، سوف نعمل به في بلادنا .

ثم طلب إليه الوالي أن يكون مستشاراً له ، فقال لقمان بأنه على استعداد للإجابة مادام مقيماً في هذه البلاد .

يشعر بحاجة شديدة إلى المرأة وهو في بلاد الشام ، يشرد طويلا في ضرورة وجود امرأة إلى جانبه ، ينظر إلى مدى حاجته إلى أنيسة وشريكة عمر، يتوق إلى إنجاب أطفال .

يتحدث إلى أحد أهالي المنطقة عن ذلك ، فيرشده الرجل إلى بيت فيه امرأة أرملة تدعى (تارح) .

يذهب لقمان مع ابنه (نادان) إلى ذاك البيت متحدثاً عن مطلبه لأبيها.

يصغي إليه الأب ، ثم يلج إلى ابنته يحدثها في الأمر .

بعد قليل تظهر المرأة الأرملة حاملة إليه شراباً ، يتبادلان النظرات قليلاً ، ثم تعود إلى حجرتها .

ينهض الأب ليسألها عما رأت في الرجل ، فتبدي موافقتها .

أجل يالقمان إنها المرأة ، المرأة التي لم يكن بوسعك الاستغناء عنها ، المرأة التي تفتح آفاقا جديدة للحياة ، ولمعنى العيش .

عند ذاك وفي الليلة الأولى من الزواج تقول له المرأة بأنها محظوظة لأن الله جعلها من نصيب حكيم يكاد يردد حِكمه كل سكان الأرض .

ثم غدت تنظر إلى هيبته بعينين مفتوحتين وتذكر قوله الشائع لرجل : إن كنت تراني غليظ الشفتين ، فإنه يخرج من بينهما كلام أبيض .

إذذاك قالت : ممن تعلمت الأدب ؟

قال لقمان وقد ابتسم قليلا : من قليلي الأدب

قالت : كيف؟

قال : كلما رأيت أحدهم أساء التصرف في أمر من الأمور ، اجتنبت فعله حتى لا أبدو في نظر الآخرين مثلهم .

قالت : صدق من قال بأنك حكيم ، ثم قالت : وأي علم أوثق

قال : تركي مالا يعنيني .

قالت : كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟

قال : إنه لو أرسل إلي النبوة عزمة لرجوت فيها العون منه ، ولكنه خيرني

فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إلي .

ثم أردف : ألا إن يد الله على أفواه الحكماء لايتكلم أحدهم إلا ما هيأ الله له .

قالت : بم توصيني يا حكيم

قال : لايأكل طعامك إلا الأتقياء ، وشاوريني في أمرك ،

لاترغبي في ود جاهلة ، فترى أنك ترضين عملها ،

اعتزلي الشر ، يعتزلك ، فإن الشر للشر خلّق ،

إياك وشدة الغضب ، فإن شدة الغضب محمقة للفؤاد ،

لاتكوني أعجز من هذا الديك الذي يصوت بالأسحار ، وأنت نائمة في الأسحار ، واعلمي أن الله تعالى يحيي القلب الميت بنور الحكمة ، كما يحيي الأرض بوابل المطر ، فإن من كذب ذهب ماء وجهه ، ومن ساء خلقه كثر غمه ، نقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لايفهم ، ثم أضاف ممازحا وهو يدنو إليها :

– في ليلة العرس هذه يا حليلتي ، اعلمي إن كان الكلام من فضة ، فإن السكوت من ذهب .





الفصل الثالث عشر

يمضي برفقة (تارح) و (نادان) في سعة الأرض ، يقضي سبع سنوات بين طبرية وحيفا والرملة .

يتعرف عى أهلها ، ثم يتجه إلى اليمن ، في الطريق تهب عليهم عاصفة شديدة ، يهلك فيها ابنه (نادان) خنقا بالغبار .

يدفنه في اليمن ويتجه إلى مصر ، يمضي هناك سنتين ، وتنجب له امرأته ولداً يسميه (ناران) .

تعود مشاعر الأبوة إليه من جديد ، يحمل ابنه متذكراً ولديه الذين خسرهما ، يشعر بأن الله عوضه بـ (ناران) كما عوضه بـ (تارح).

النفس تتبع توجهات صاحبها ، لاتوجد نفس لاتخضع لأمر حاملها يالقمان، والنفس كالمرأة ، تكون امرأة كلما كان زوجها رجلا ، وتكون رجلا كلما كان زوجها امرأة .

وهي في قمة رجولتها ، تكون رجلا ًناقصاً، وفي قمة أنوثته يكون امرأة ناقصة .

النفس تقف أمام صاحبها القوي بخشوع، بوقار، بتقدير، باعتزاز ، بأمان.

وتقف إزاء صاحبها الواهن بسخرية، باستهزاء، باشمئزاز، بخيبة، بقلق.

تريد النفس أن تكون مفتاحا بيد صاحبها ، أكثر مما تريد أن يكون مفتاحا بيدها .

إنها مرة أخرى كالمرأة ، في ذروة اشمئزازها توجه صفعة مؤلمة إلى زوجها الواهن ردا على وهنه وعدم تمتعه بمسؤولية الرجولة نحوها .

إنها تعبر عن قوة إدانتها لـ «لاتمتعه» بخصال الرجولة .

كذلك النفس التي توجه العقاب تلو العقاب لصاحبها ردا على إذعانه لرغباتها ، إنها تستمد معالم استقوائها من منعرجات وهنه .

ربما من أهم التحديات التي تواجه الإنسان لحظة يبدأ وعيه بالتشكل يا لقمان هو أنه يرى نفسه أمام وقائع حياتية متناقضة ليس بوسعه أن يعيش في معزل عن مؤثراتها .

هنا يكتشف مدى حاجته إلى ترويض النفس على استيعابها ، والإحاطة بها والوقوف موقفا وسطيا منها حتى يستقر الحدث ، ومن ثم يأخذ موقفه المعتدل من واقع هذا الحدث .

الموقف الوسطي الأولي هنا قد يحتاج إلى شيء من التكيّف حتى مع حدث سلبي يقع بغتة، وهنا يكون أمامك أن تميز بين التكيف المؤقت، وبين الإذعان تسليما لواقع الحدث ، لأن الحدث المباغت بالنسبة لك هو غموض لاتدرك مكامن ضعفه، ومعالم قوته. الأمر الذي لا يؤهلك لتحديد نقاط الوهن، ونقاط القوة فيه، ومقارنتها بقدراتك على الاصطدام الفوري والمباشر معها.

ليس بالضرورة أن ينحصر الحدث في ماديته ، بل قد يكون فكرة تخطر لك، فترى نفسك إزاء حدث فكري مزلزل ربما أقوى من حدث مادي مباشر.

الترويض هنا لايحتاج إلى شيء قدر حاجته إلى الزمن ، كما أنك لاتحتاج إلى شيء قدر حاجتك إلى مرور زمن ليترسخ سلوك الترويض في نفسك شيئا فشيئا ، حدثا حدثا ، موقفا موقفا حتى تمسي روضة عامرة بالنضج والحكمة والتجارب .

تأخذ بين حين وحين قسطا من راحة روحية في رحابة جداولها .

الترويض في هذا الباب درجات ، أحيانا حتى النظرة تحتاج إلى تأن كي تنظرها ، الكلمة تحتاج إلى وقت حتى تلفظها ، الخطوة تحتاج إلى تردد حتى تخطوها ، التعرف إلى شخص جديد تراه لأول مرة يحتاج إلى مراحل

حتى تستقبله صديقا ، حتى النهوض من فراش النوم يحتاج إلى تمهل حتى تقف على قدميك .

النظرة غير المتأنية قد تفقئ عينيك ، الكلمة المتسرعة قد تسجل عليك تقييما لاتأباه ، الخطوة العاجلة قد تؤدّي بك إلى هوةٍ ، الشخص الذي تستقبله صديقا منذ اللقاء الأول قد يضمر لك شرا ، النهوض المباشر من الفراش قد يجعلك في حالة توتر طوال اليوم .

كل نفس قابلة للترويض في جل مراحلها .

ترويض النفس على الشجاعة، على الجبن، على الكرم، على البخل، على النظام، على العبث، على الفضيلة، على الرذيلة، على النشاط، على الكسل.

شاء الرب أن يأتي آدم متوازناً طبيعياً يمتلك طاقات معتدلة للانسجام مع مختلف مراحل الحياة وفصول الاختلاف في نفسه وفي أي طبيعة تحيط به . ولسوف يورّث هذا الجد العجوز كل هذه المورثات التي لا يملك غيرها لأحفاده الذين سوف يملئون أرض الرب ، يأكلون من نباته ، ويشربون من أمطاره .

حتى لو وُضِع أحد الحفدة في عزلة محكمة دون رشيد ، لتبقى هذه المورثات النورانية الطبيعية تمكّنه العيش بسكينة وراحة نفس ، وفي ذروة وحشة هول العزلة يترامى إليه أنه كائن مسكون باللجؤ إلى اللّه .

لسوف يبدو مبتهجاً قدر نجاحه الحفاظ على الإرث ، وتعيساً قدر فشله في مهمة الحفاظ .

يستطيع أن يتمتع بطعام شهي ثلاث وجبات في اليوم والليلة ، يتمتع بذروة اليقظة ستة عشر ساعة يمضيها فيما شاء ، يسكن قي عالم من نوم وأحلام ثماني ساعات .

لديه قدرات لتعلّم لغات أصقاع الأرض ، يعقد صداقات ، علاقات غاية في الإثارة والحميمية ، يرتدي ثياباً جديدة .

كل ذرة من كنوز الإرث تعينه على الانفتاح ، تضفي متاعاً على كل خطوة يقوم بها ضمن مملكة الاعتدال حتى إذا نسي متاعاً ، آتاه فذكّره : ورثتكَ وورثتني لتتمتع بي وأتمتع بك .

فينطلق هذا الحفيد بحيوية الفتيان ليقطف عناقيد الراحة واللهو والتسلية والاستلقاء على الظهر ، والتمطي بعد نوم عميق ، والمشي الهُوَيْنى، والترحال، والإبداع ، وقشر الفاكهة ، وعناق الذكورة والأنوثة ، وصلة الرحم، وتأمل جمال الطبيعة ، والنظر إلى الطير وهو يطير .

من ضفة العمر الأخرى يكتشف أن توازنه يُستمدّ من تمتعه بهذه الخواص الجسدية والروحية ، فإن نجنّب فحولة الرجولة ، أو متاع اليقظة ، استرخاء الغفوة ، عمق النوم ، تغيير النسيم ، لذة إتقان المهنة ، فقد السيطرة بزمام توازنه .

إن أفرط في متاع ، أفقده المتاع توازنه في ردّ عقاب كي يقف في حدّه ، وينتبه إلى خطورة الإفراط ، فلا يأخذ إلاّ بقدر،فإذا أفرطت في العشرة الزوجية يالقمان، عاقبتك العشرة الزوجية ، وإذا أفرطت في تناول طعام ، عاقبتك معدتك ، وإذا أفرطت في الراحة ، عاقبتك الراحة ، وإذا أفرطت في الاستيقاظ ، عاقبك الاستيقاظ .

عندما لا تستحم فإن جسدك يدعوك إلى غسله ، وعندما تستحم كل ساعة ، فإنه يدعوك إلى الكف عن ذلك .

عندما تهمل أسنانك فإنها تعاقبك ، وعندما تحافظ على هبة الله هذه ، فإنها تؤدي مهمتها وتحافظ على راحتك .

إن كل ما لديك هو لراحتك وإمتاعك ولا شيء فيك لإزعاجك أو إقلاقك، ولكن هذه النعم ذاتها تنتقم منك وتزعجك عندما تزعجها ولاتستخدمها بقدر يحقق لك الاكتفاء .

إن القدر يحقق لك الاكتفاء .

كل هذا ليبقى الإنسان محافظاً على توازنه الطبيعي وليعيش حياته بصورة طبيعية بعيداً عن الخلل والازدواجية والعقد في مجتمع سوي وا ضح يفهم بعضه بعضاً ويصدق بعضه بعضاً في القول والفعل .

دوماً يكون الخير كل الخير في الوسطية .

الإنسان عندما يشدّد على نفسه في أمر ، فإن اللّه كذلك يشدّد عليه، فتتعسر أموره ولاتتم إلاّ بشدّة وعسر، ذلك أنه هو الذي مال إلى الشدّة والعجلة ، وإذا يسّر على نفسه في أمور دنياه ووسّع وتأنّى ، فإن اللّه يوسع عليه ويجعل له من أمره رشدا . الغايات والأهداف والرغبات تتحقق أول الأمر لأولي التلميحات والإيماءات والتمهّل والحكمة ، بيسر ، وقد تتحقق حتى عن غفلة منهم ، بينما أهل الشدّة والعجلة ، فإن أهدافهم ورغباتهم لاتتحقق إلاّ بشق الأنفس .

التأني يمنح صاحبه حالة من الهدوء والصفاء ، بينما الشدّة تملأ صاحبها بالاضطرابات النفسية والعصبية .

جعل اللّه طاقات من الصبر لدى الإنسان بصفة عامة حتى للذين ورثوا الاضطرابات والشدّة عن آبائهم ، ولكن على الإنسان أن يستعين على قضاء حوائجه بطاقة الصبر هذه حتى يرى اللّه يوسع عليه .

لقد خلق اللّه كل شيء ، ولاشيء جاء بدون خلق اللّه له ولذلك فإن الحياة هي غنية بهذا التنوع الهائل في الخلق ، والإنسان سواء أدرك أو لم يدرك، فإنه لا يكون متوازناً ومنضبطاً لولا هذا التنوع والاختلاف الذي يبلغ في مخلوقات وحالات حد التناقض .

أنت ترى وتسمع وتشم ، بالمقابل ترى مَنْ لايبصر ولايسمع ولايشم رائحة، وأنت تمشي على قدميك ، بمقابل مَنْ يمشي على قدم واحدة ، أو جزء من

قدم ، أو هو محروم من نعمة المشي على قدمين .

وإذا رأيت شخصاً متّقد الذكاء ، فإنك ستجد لقاءه شخصاً أَبْلَهَ ، وإذا رأيت نحلة تأخذ الرحيق من وردة وأن ما يخرج منها هو شفاء وعافية لك ، فإنك ترى ذبابة تحط على قمامة ومجرد لمسك لها يسبب لك علّة .

لولا النحلة لما كانت الذبابة ، ولولا المبصر لما كان الأعمى ، ولولا الأبله لما كان الذكي ، ولولا الماشي على قدمين لما كان الأعرج ، كما أنه لولا الليل لما كان هناك نهار ، ولولا الموت لما كانت ثمة حياة . فأنت لن تتزن ما لم تستخدم ما لديك من دموع ، وضحك ، وجماع ، وجهد ، وراحة ، وجوع ، وشبع ، ودفء ، وبرد .

هذا بذاته يحرّك طاقات وقدرات ونزعات الإنسان ويقي مشاعر الجمود أو النوم الأبدي ، فأنت تعيش لذة تقديم شيء نافع للآخرين ، ولم يكن هذا الشعور ليتحقق لولا وجود شخص آخر يعيث فساداً في الأرض ، وهذا ليس إعلاءً من شأنه ، بل هو حط وإنقاص له على قدر ما هو ارتقاء وسمو لك ، لأن الإنسان بطبيعته لايرتقي بما يقدّمه من شر ، بل ينحدر و هو ذاته يُدرك هذا الانحدار ، وكما أن مقدّم الخير يشم رائحة طيبة من عمله الطيب ، فإن مقدّم الشر يشم رائحة خبيثة من عمله الخبيث . لا شيء يسمو بالإنسان غير الإيمـان، وكلما آمن الإنسان وتفقّه في إيمانه ازداد سمواً وارتقاءً . كلما أقدم شخص على فعل شر فإن إيمانه يكون في نقصان . والخير هنا تقديم المنفعة للناس، والشر تقديم الضرر لهم إلى درجة أنهم يتقون شر هذا الشرير . وهذا خلاف المعصية فقد ترى مؤمناً ارتكب معصية و هو في إيمانه ولكنه يتوب عنها ولا يكون قد آذى أحداً جراء معصيته . مثل هذه التفاصيل قد لاتلتفت إليها وتعدها من الوسوسة ، ولكن في حقيقة الأمر فإنك تستمد انضباطك ونظام حياتك من تفاصيل هذه الوسطية ، فهي تعلّمك كيف تتدخل في شؤون حياتك وتضبطها وتقدّرها تقديرا . وكذلك فإنها تُكسبك قوة الشخصية وتحميك من نزعة الانفلات .

الكلمة التي تتحدث بها مقدّرة لك ، فلا تلق الكلام على عواهنه ، قد تحتاج في موقف إلى كلمة حق تقولها ، ولكنك تكون قد أسرفت في الكلام فلا تقدر على قولها ، إن الصوت ذاته يعاقبك فلا يعينك على قول كلمة واحدة وأنت في كامل وعيك . فانظر كم مررتَ بمراحل حتى تعلمتَ لغة وأجدت استخدام الصوت بشكل هادف ، كان ذلك لتتمكن من التواصل في مجتمع يستخدم اللغة وسيلة للعيش والتواصل فيما بينه ، وليس لتقذف الكلام كما لو أنك تريد أن يَنْفَدَ .

النظر ذاته عليك أن تحافظ عليه فلا تستخدمه إلاّ في الأمور الهادفة التي تنتفع بها، يمكنك أن تستخدمه للنظر في جمال خلق الله في الإنسان والطبيعة ، للأعمال التي تقوم بها ، لا أن تستخدمه للمواضع الخبيثة التي تقودك إلى الإثم متى رأيت إلى ذلك سبيلا .

تجنّب اختلاس السمع والتجسس ، فإن سمعك يريد منك أن تستخدمه في مواضع الطيب .

عليك أن تهتم بصحة أذنيك وعينيك وفمك وتهتم بصحة كل حاسة من الحواس التي أُتيتها بقدر .

كم من شخص انفلت يقهقه في مجلس دون ضابط حتى سقط مغشياً عليه، كم من شخص أغمي على مائدة لأنه تناول طعاماً وشراباً بإفراط ، كم من شخص تحدّث دون انضباط في مجلس حتى فقد صوته ، وكم من رجل بذر في كل حرث حتى فقد البذر لحرثه .

إذا رفعك الله إلى مرتبة من مراتب الدنيا ، فلا تنس النظر إلى مَنْ هو أدنى مرتبة منك وكن رفيقاً به .

لن تستطيع أن تكون معتدلاً ما لم يستقر الاعتدال في جنباتك ، إن درجة الإيمان هي ذاتها التي تحقق لديك درجة الاعتدال مع الذات ومع الآخر .

إذا رزقك اللّه بولد ، فأكرمه إنه أمانة اللّه لديك ، لقد ائتمنك اللّه على هذا الولدبعد أن رزقك به ، فاحفظ أمانة اللّه.

إذا عمل عندك عامل ، اكرمه . فإن اللّه قد ائتمنك على رزقه ، وأَمَرَه أن يقضي لك حاجة من حوائج الدنيا .

جعلك اللّه أميناً على رزقه ، فاعد أمانة اللّه ، قد حان وعدها قبل أن يجف عرق العامل .

كل ذرة في الإنسان مقدّر لها تحقيق الاعتدال في ذاتها .

الطيّب يميل إلى حزب طيّب ، والخبيث يميل إلى حزب خبيث ، الطيّب يميل إلى صداقة طيّبة ، والخبيث يميل إلى صداقة خبيثة ...

الطيّب يميل إلى شراكة طيّبة ، والخبيث يميل إلى شراكة خبيثة ، الطيّب يميل إلى علاقة اجتماعية طيّبة ، والخبيث يميل إلى علاقة اجتماعية خبيثة،الطيّب يميل إلى قول كلمة طيبّة ، والخبيث يميل إلى قول كلمة خبيثة، الطيّب يميل إلى مصدر رزق طيّب ، والخبيث يميل إلى مصدر رزق خبيث.

كما أن الصادق يكرمه صدقه ، والفاضل يكرمه فضله ، والمخلص يكرمه إخلاصه ، فإن الكاذب يذله كذبه ، والمفسد يذله فساده ، والمنافق يذله نفاقه .

إن الشاذ يعاقبه شذوذه، وزير النساء تعاقبه امرأة ، ومَنْ يعق أباه يعقه ولده ، ومَن يعق أمه تعقه ابنته ، وفق هذا المنهج تمضي حكمة اللّه في الناس يالقمان .

* * *



الفصل الرابع عشر

بغتة يشتعل في داخله الحنين إلى ذاك البيت المغلق الذي شهد أهم مرحلة انتقالية في حياته ، اشتعل فيه الحنين ورأى العودة إلى تلك البقاع .

عندئذ توفى ابنه (ناران) البالغ من العمر ست سنوات، بداء الجدري.

فاضت عيناه من الدمع وقال لزوجته وهو يهدئ من روعها : رزقنا الله به، ثم أخذه الله منا ، جاءنا من الله ، وعاد إلى الله ، الحمد لله الذي رزقنا به، والحمد لله في مشيئته .

عندئذ أوقفت الغصة الكلام في حنجرته ، ولم تدعه قادراً على قول كلمة أخرى .

يشعر لقمان بأنه ازداد نضجا وحكمة في هذه الرحلة الطويلة ، ازداد معرفة بالحياة والناس ، فكلما ألمت به نائبة ، ازداد إيماناً بالله.

في طريق العودة إلى البيت تنجب امرأته ولدا آخراً يسميه (ثاران) كناية باسم الابن الأول الذي رزقه الله به .

يتقدم لقمان إلى تلك البقاع وهو يشم تلك الروائح التي فارقها، يتذوق لذة العودة إلى الديار بعد فراق .

يبلغ ناحية البيت فيهرع الناس لاستقباله بعد أن افتقدوه عشرين سنة ، وقد كانوا يتتبعون أخباره وحكمه الجديدة التي يقولها .

يدخل البيت الذي اشتدّ حنينه إليه ، يأتيه الناس من كل حدب وصوب ، يسأل عن أيوب ، فيقال له بأنه مات منذ سنتين ، يحزن عليه بشدة . بعد نحو شهر يقرر العودة إلى عمله في نجارة الخشب .

تجاوز الليل منتصفه وهو ما يزال يسرح في لفائف تأمله وسط عمق ظلمة الوقت ، ممدداً على فسحة العرزال الواسع المستور بقماش أبيض إلى جانب زوجه وأولاده .

تتناهى إلى سمعه كصدى أصوات متداخلة لبنات آوى ، عواء ذئاب ، نباح كلاب تزيده شعورا بأنه يستلقي وسط حلكة ليل النوبة في أربعينية صيف قائظ .

انتبه للتو كأنه لم ينتبه من قبل إلى سر حرص الإنسان على حياته ، تذكر كيف أنه جمع أكوام الحطب حتى يصنع هذا العرزال المرتفع عن الأرض حتى يقيه ويقي أسرته أذى الحيوانات المؤذية .

انتبه كيف أن الإنسان يجنح إلى الستر ، في هذه الصحراء النوبية بعمق حلكة ليل قاتم ، يستر موضع نومه بهذا الستار لأن الضوء قد يبزغ بغتة ويكونون في نوم عميق فيراهم أحد الجوار في وضع به خصاصة رقاد .

سرت نسمة هواء باردة إليه أشعرته بدفق جمالية العلاقة التبادلية بين الإنسان ومقومات الحياة .

شرع ذراعيه وأخذ يتمطى بكامل أعضاء جسده متلذذا بهذه الحركات الرياضية السريرية التي تطرد الإرهاق من بدنه ، ولا يدري كيف تسربت منه نظرة إلى المرأة المستلقية بجانبه والغارقة في لفائف نوم عميق .

رغب في احتضانها إلا أنه رأف بنومها ، ومنع نفسه هذه الرغبة حتى لا يقلقها في نومها ...

من جديد تذكر عظمة الله في الزواج ، تذكر كيف سخر المرأة للرجل، وسخر الرجل للمرأة .

لقد تركت هذه المرأة أهلها وديارها ورضيت أن تكون حليلة له تجعله زوجا ، تجعله نسيبا، تجعله أبا ، تجعله رب أسرة .

لا تنس طرفة عين يا لقمان أنك فقير كل الفقر إلى غنى الله، أنك واهن كل الوهن إلى قوة الله ، أنك جاهل كل الجهل إلى علم الله، تغلب عينيه سطوة النعاس ، ويغيب في استرخاء النوم كما هي العادة كل ليلة بعد تأمل

عميق في الإنسان والكون ، وهو العائد من عمل شاق في قطع الأشجار ونجارة الخشب وصناعة الأبواب والشبابيك .

هذا الرجل العجوز الذي تجاوز قرنا ونصف القرن من العمر ولا يعرف الإرهاق إلى بدنه سبيلا .

يخرج مع بزوغ الضوء إلى عمله الشاق ولا يعود إلا تحت جنح الظلام ، وعندما لايجد عملا في النجارة يلجأ إلى الخياطة ، أو يجمع الحطب بين العملين بحيث يمضي نصف يومه في الخياطة والنصف الآخر في النجارة ، وإن خف العملان فإنه لا يتردد في رعي الأغنام .

ما يهم هو ألاّ يمضي يوم لا يفعل فيه شيئا ، لا يتعلم منه شيئا ، لا يقدم نفعا لإنسان ، أو حيوان ، أو نبات ، أو جماد .

وعندما تدعوه زوجته إلى أخذ قسط من الراحة بسبب شيخوخته، فإنه يردد لها كأنه يشدو بأغنية : إن أطيب لقمة تناولتها في حياتي هي لقمة اكتسبتها بأكبر قدر من مشقة ، وأعز ثوب ارتديته هو ثوب يذكرني شراؤه بعرق الجبين، وأنفع مال أدخلته على عيالي هو مال بلغته بعد جهد بلغ بي أقصاه، وأحسن صدقة تصدّقت بهاهي صدقة ما أزال أعاني إرهاق كسبها.

ويردد لها بأن موعد النوم الطويل سوف يحين ، نوم يطول ويطول إلى أن ينسى المرء فيه كل ما أصابه من تعب الدنيا حتى لو أمضى كل عمره في عمل مستمر دون لحظة نوم. لن يكون هذا العمر بالنسبة لذاك النوم أكثر من ساعة .

إن اليوم الذي يمضي عليه ولا يقدم فيه شيئا ، ينتاب نفسه فيه ألم عظيم، إلى جانب شعور بأنه عاش ذاك اليوم عالة على أسرته ، وعلى الحياة برمتها .

ويا له من يوم مجيد ذاك الذي يمارس فيه أكبر قدر ممكن من النشاط.

يذكر تلك الأيام النفيسة جيدا: يذكر يوما حافلا خرج فيه من البيت إلى عمله، نجر بابا لغاية الظهيرة ، وعلى عجل اتجه إلى المتجر الذي يعمل فيه خياطا، لبث حتى العصر لينجز ما كان ينتظره من خياطة ، ثم اتجه إلى بيت عزاء بأحد جواره ، وبعد الغروب ذهب إلى عيادة مريض ،هناك رأى شخصا قال بأنه يبحث عنه من أجل أن يصنع عمودا لبيته الذي غدا على وشك السقوط ، عاد مع الرجل إلى مكان العمل ، لبث إلى أن أنهى العمود وساعد الرجل في حمله إلى بيته ، وفي طريق العودة وقد أوشك الليل أن ينتصف رآه رجل يقول بأنه خرج من بيته بسبب أولاده الذين يتضورون جوعا ولا يملك شيئا ، فأعطاه نصف ما كسبه في ذاك اليوم .

اتجه إلى البيت ليسمع أصواتا متداخلة عند جواره فدنا وإذ بشخصين من الجوار يتشاجران من أجل قرض حان سداده ، ولا يملك المدين شيئا ، فأخرج ما بقي لديه من أجر عمله وأعطى الدائن وأصلح بينهما .

يقول في قرارة نفسه: كيف لشخص أن يقبل العيش في الحياة متطفلا على الآخرين ، ليس من شخص لا يكون بوسعه أن يقدّم خيرا في يوم ، إنه يحاول أن يعبر عن امتنانه ولو ببسمة ، بإماطة أذى عن طريق ، بسقاية نبات ، بمداعبة حيوان أليف ، بقول كلمة حق ، وإن عجز فيكفيه أن يتخيل تقديم خير ، ينظر إلى أنه سوف يقدم خيرا لدى أول مقدرة .

أما ذاك الذي لا يقدم على فعل الخير ، ولا يتخيله ، ولا ينظر أنه سوف يفعله ، فهو الذي يحرم نفسه فضيلة الخير ، وذاك أشد عقاب يقدّمه امرؤ لنفسه .

الذي ينظر إلى حياة تخلو من مسيئين، كالذي ينظر إلى حياة تخلو من محسنين .

الفارق بين المحسن والمسيء ، أن المحسن يمكن بمواقفه الحسنة أن يحيل سيئاً إلى محسن ، وأن السيئ بمواقفه السيئة يزيد المحسن ثباتا في

ممارسة سلوك الإحسان .

الأصل في التعامل بين الناس هو حسن الظن ، فإن أساء شخص إلى الثقة، فهي معضلته أكثر مما هي معضلة مانح الثقة .

لقد ارتضى الأول أن يتمثل فضيلة حسن الظن ، وارتضى الثاني أن يتمثل رذيلة الإساءة إلى حسن الظن .

ومن الطبيعي أن فضيلة حسن الظن لاتتحقق لشخص مجاناً، بل عليه أن يكون على استعداد دائم لدفع ضريبة الارتقاء في درجات الفضيلة ، كما أن رذيلة الإساءة لحسن الظن لاتكون مجاناً، لأن صاحبها يكون على استعداد دائم لدفع ضريبة الانحدار في متاعب الجور .

وكما أن الفاضل يلبث يقطف عناقيد شجرة الفضيلة على مرآة من الناس، فإن أشواك شجرة الرذيلة تتهاوى على الرذيل على مرأى من الناس .

في كل هذا يالقمان ، فإن الفاضل يزداد حذرا ، يزداد يقظة ، يزداد تجاربا، وهذا يجعل حالة الصواب متقدمة لديه على حالة الأخطاء، حالة النجاح متقدمة على حالة الفشل ، حالة السكينة متقدمة على حالة الاضطراب، حالة الاستمتاع بمباهج الحياة متقدمة على حالة الحرمان.

في حين يزداد الرذيل جهلا ، يزداد غفلة ، يزداد قوقعة .

وهذا يجعل حالة الأخطاء لديه متقدمة على حالة الصواب ، حالة الفشل متقدمة على حالة النجاح ، حالة الاضطراب متقدمة على حالة السكينة ، حالة الحرمان متقدمة على حالة الاستمتاع بمباهج الحياة .





الفصل الخامس عشر

يمضي في الطرقات ، يتميّز حتى بمشيه عن الناس ، كل الأنظار تتجه إليه، البعض يهمس وهو يشير إليه بالبنان :

إنه حكيم الأرض .

وهو يمضي في طريقه، ولا يكاد يتوقف عن إلقاء السلام على جموع الناس.

يقف بغتة أمام رجل يطيل النظر إليه ، يلقي السلام ، يتقدم بعض الناس إليهما ، ينظر لقمان إلى الرجل الذي ما يزال يحدق فيه ، ويقول : إن كنت تراني أسود ، فقلبي أبيض .

قال رجل ، وكأنه يغتنم فرصة وقوفه مع هذا الرجل الحكيم ذائع الصيت: أي علم أوثق في نفسك ؟

قال : تركي مالا يعنيني

جاء صوت آخر : أي الناس شر ؟

أجاب : الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئا .

ثم أضاف بعد شيء من صمت : لا تعاشر الأحمق ، وإن كان ذا جمال ، انظر إلى السيف ما أحسن منظره .

تقدم إليه ثلاثة رجال من بعيد ، وما إن دنوا منه حتى سبق أحدهم صوته:

أي الخصال خير للإنسان يا حكيم ؟

تمهّل في الإجابة إلى أن بلغه الرجال الثلاثة فقال : الدين ...

قال الصوت ذاته : فإذا كانت اثنتين ...

أجاب : الدين والمال .

قال الرجل الثاني على الفور : فإذا كانت ثلاثة يا حكيم

أجاب : الدين ، والمال ، والحياء .

أردف الصوت نفسه : إذا كانت أربعة

قال : الدين ، والمال ، والحياء ، وحسن الخلق .

قال الرجل الثالث : فإذا كانت خمساً؟

قال : الدين ، والمال ،الحياء ،وحسن الخلق ، والسخاء .

قال الصوت ذاته : فإذا كانت ستاً؟

قال : مَن اجتمعتْ فيه الخصال الخمس ، فهو تقي نقي ، ولله ولي .

قال ذلك ومضى في سبيله ، عند ذاك لحقه صوت رجل يهرول إليه قائلاً: انصحني يا لقمان

توقف لقمان حتى لحق به الرجل فقال : أشكر لمن أنعم عليك ، وانعم على شكرك ، فإنه لابقاء للنعمة إذا كفرت ، ولا زوال لها إذا شكرت .

في أثناء ذلك تقدم إليه جمع آخر من الناس ، فقال رجل يبدو أنه أراد أن يستفزه : ما أقبح وجهك يا لقمان

غرق لقمان في صمت، وهو يكظم غيظه، بيد أن الرجل أعاد كلامه وطلب الإجابة .

عند ذاك نظر إليه لقمان وقال : أتعيب على النقش ، أم على النقاش؟!

صمت الرجل ، واستدار مولياً ظهره للجمع ، عند ذاك تقدم رجل إلى لقمان فقال له : أنت لقمان ، أنت عبد بني الحساس .

قال : نعم

قال : فأنت راعي الغنم الأسود ؟

قال : أما سوادي فظاهر ، فما الذي يعجبك من أمري ؟

قال الرجل : وطء الناس بساطك ، وغشيهم بابك ، ورضاهم بقولك .

قال : يا بن أخي ، إن صنعت ما أقول لك كنت كذلك

قال : ما هو ؟

قال : غضي بصري...

قال الرجل : وأي ؟

أجاب : كفي لساني ...

قال الرجل : وأي ؟

أجاب : عفة مطعمي ...

قال الرجل : وأي ؟

أجاب : حفظي فرجي ...

قال الرجل : زدني

قال : قيامي بعدتي ...

قال الرجل : زدني

قال : وفائي بعهدي ...

قال الرجل : زدني

قال : تكريمي ضيفي ...

قال الرجل : زدني

قال : حفظي جاري ...

قال الرجل : زدني

قال : تركي مالا يعنيني ، فذاك الذي صبرني كما ترى .

يكمل المسير إلى عمله ، وهو يشكر الله على نعمة الحكمة التي أنعم بها عليه ، والتي تحصّنه ضد ما يتلقى من استفزازات ، فيستثمر ذلك بحكمة ينفع بها نفسه ، وينفع الآخرين .

لم يمر بخصمين إلاّ أصلح بينهما مهما كلفه ذلك من ثمن ، لم يشتم أحدا، لم يضرب مخلوقا ، لم يتأخر عن القيام بأي واجب إنساني أو اجتماعي ، أو عائلي .

حول الظهيرة جاء إليه ابنه (ثاران) حاملا طعام الغذاء ، فجلس يتناول الطعام ، وهو يشرد : إن لم يجع الإنسان ، فإنه لايتذوّق لذة الشبع .

الآن أنت جائع يالقمان ، بعد قليل ستشبع ، ثم ستجوع، ثم ستشبع .

هكذا هي الحياة ، إنها لاتقف على حال ، أخذ الله منك أولادك ، وعوضك بهذا الابن الوديع الذي يكبر سنة بعد سنة أمام نظرك ، ويأخذ هيئة ابنك الأول .

عندما فرغ من الطعام نظر ملياً في وجه ابنه ، فرآه في حالة حزن .

مدّ كفه يربت على كتفه قائلا : يا بني ، حملتُ الصخر ، فلم أحمل أثقل من الدَين ، وأكلت الطيبات ، فلم أصب ألذ من العافية ، وذقت المرارات ، فلم أذق أمر من الحاجة إلى الناس .

يا بني : إنما الوالدان باب من أبواب الجنة ، فإذا رضيا مضيت إلى الجنان ، وإن سخطا حجبت عنها .

يا بني : لا تجالس الفجار ، ولا تماشهم ، اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم .

يا بني : جالس العلماء وماشهم ، عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك

معهم .

يا بني : بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا .

يا بني : عود لسانك أن يقول : اللهم اغفر لي . فإن لله ساعة لا يرد فيها دعاء .

وعندما رأى ابنه يصغي إليه بإنصات وقد استكانت ملامحه أردف يقول بهدوء بالغ :

جالس العلماء وزاحمهم بركبتك ، فإن الله سبحانه يحيي القلوب الميتة بنور العلم ، كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء ، وإياك ومنازعة العلماء فإن الحكمة نزلت من السماء صافية ، فلما تعلمها الرجال صرفوها إلى هوى نفوسهم .

ينصت ابنه إليه هازا رأسه ملتمسا المزيد من أبيه فقال : يا بني لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم ،

قال الابن : يا أبت إن عملت الخطيئة حيث لايراني أحد ، كيف يعلمها الله ؟

يقول : يا بني إن أتتك مثقال حبة من خردل فلتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت الله بها إن الله لطيف خبير .

ثم أردف : يا بني أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ،

ثم بعد لحظات صمت أخرى والابن يتلقى الحكمة من أبيه بمزيد من الإنصات ، وقد تسربت راحة نفسية إليه : واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور .

صمت الأب مرة أخرى ، فرفع الابن رأسه إليه يسأله المزيد فقال :

ولا تصعر خدك للناس ...

هز الابن رأسه ، وهو يبكي

فقال : ولا تمش في الأرض مرحا ...

ثم بعد قليل أضاف :

إن الله لا يحب كل مختال فخور . . .

هز الابن رأسه وصار يبكي

فقال : واقصد في مشيك ...

ما يزال الابن يهز رأسه ، والدموع تنهمر من عينيه وينظر سائلا إياه المزيد

فقال : واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير .

ثم طلب إليه أن ينهض ليعيد أواني الطعام إلى البيت ، ويرى حاجات أمه، وعندما نهض الابن ليستودعه قال : يا بني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

يا بني اتخذ طاعة الله تجارة ، تأتك الأرباح من غير بضاعة .

يابني : أوصيك بخلال إن تمسكت بهن لم تزل سيدا :

أبسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم ، واحفظ إخوانك ، وصل أقاربك ، وأمنهم من قبول قول ساع ، أو سماع باغ يريد فسادك وخداعك ، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك .

يابني : إياك والطمع ، فإنه فقر حاضر .

يابني ، كن لين الجانب ، قريب المعروف ، كثير التفكير ، قليل الكلام ،

إلا في الحق ، كثير البكاء ، قليل الفرح ، ولاتمازح ، ولاتصاخب ، ولاتمار .

وإذا سكت فاسكت في تفكر ، وإذا تكلمت فتكلم بحكم .

يا بني ، لايكن الديك أكيَس منك ، إذا تقضّى الليل خفق بجناحيه، وصدح إلى الله بالتسبيح ، وإياك والغفلة ، ولاتعلم بذلك الناس ، ولايغرنك الناس بما لاتعلم من نفسك ولاتغتر بقول الجاهل.

يابني ، تعلم الخير وعلمه . واعلم أن الناس بخير مابقي الأول حتى يعلم الآخر . وإنما كلام المعلم كالينابيع يحتاجها الناس يوما هذا ويوما هذا ، فينفعون بها . وعليك بالتواضع فإن أحق الناس بالتواضع أعلمهم وأحسنهم له عملا .

يا بني ، تعلم الحكمة وأخلاقها كلها ، واجعلها لك شغلا ، وفرّغ نفسك لها .

أسرع إلى كسبها ، وأبطئ إذا أنفقتها ، وقر عينا إذا جمعتها ، واعلم أن الحكمة لاتصلح إلا باللين ، وأن اللين جراب الحكمة ، وأن مثل الحكمة بغير تدبير بمنزلة ما في يدي غير خازنه أباحه سارقا ووجده معوزا ، أو كمثل غنم تروح في غير زريبة أتاها الذئب ووجدها ضائعة فأكلها ، وتعاهد مع ذلك لسانك ، واعلم أن اللسان باب الحكمة ، فإذا ضيعت الباب دخل من لاتريد أن يدخل ، فإذا حفظته حفظت الخزانة ، وإن من ملك لسانه إن قال ، قال بعلم ، وإن صمت صمت بحلم . إذا رأى لقوله قرارا تكلم ، وإن لم يره قرارا فإذا استنطقه من يريد الدين اجتهد ، وإن استنطقه السفهاء صمت .

يابني ، لاتصوّب عينيك إلى زهرة الدنيا ، ولاتطلبن قضاء كل نهمة من الدنيا ، ولتكن نهمتك فيما يقربك إلى الله .

يا بني : لاتتعلم العلم لثلاث ، ولاتدعه لثلاث :

لاتتعلمه لتماري به ، ولا لتباهي به ، ولا لترائي به .

ولاتدعه زهادة فيه ، ولا حياء من الناس ، ولا رضا بالجهالة .

يا بني : اعتزل عدوك ، واحذر صديقك ، ولا تتعرض لما لايعنيك ، واعلم يابني أن مَن كتم سره ، كان الخيار بيده.

خذ من الدنيا بلاغك ، وانفق فضول كسبك لآخرتك ، ولاترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا ، وعلى أعناق الرجال كلا .

كن كالأب لليتيم ، ولاتحاب القريب ، ولاتجالس السفيه ، ولاتخالط ذا الوجهين البتة .

واعلم يا بني أن للحاسد ثلاث علامات : يغتاب صاحبه إن غاب ، ويتملق إذا شهد ، ويشمت بالمصيبة .

بدأ لقمان يمشي مع ابنه خطوات ، وهو يقول له :

يا بني : إذا أردت أن تواخي رجلا فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره .. لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء .. أنزل الناس من صاحبك منزلة من لاحاجة له بك ولابد لك منه .. كن كمن لايبتغي محمدة الناس ولايكسب ذمهم ، فنفسه منه في عناء والناس منه في راحة . . امتنع بما يخرج من فيك ، فإنك ماسكتّ سالم ، وإنما ينبغي لك من القول ما ينفعك .

يابني : اتق اللّه ولاتري الناس أنك تخشى اللّه ليكرموك، وقلبك فاجر.. لتكن ذنوبك بين عينيك ، وعملك خلف ظهرك ، وفر من ذنوبك إلى اللّه ، ولاتستكثر عملك.. أطع اللّه فإنه من أطاع اللّه كفاه ما أهمه وعصمه من خلقه.. يا بني عليك بالصبر واليقين ومجاهدة نفسك ، واعلم أن الصبر فيه الشوق ، فإذا صبرت عن محارم اللّه وزهدت في الدنيا ، وتهاونت بالمصائب، لم يكن أحب إليك من الموت ، وأنت تترقبه .

وإياك والغفلة ، خف اللّه ولاتعلم بذلك الناس ، ولايغرنك الناس بما لاتعلم من نفسك ، ولا تغتر بقول الجاهل إن في يدك لؤلؤة وأنت تعلم أنها بعرة .

يا بني : كن لين الجانب ، قريب المعروف ، كثير التفكر ، قليل الكلام إلا في الحق ، كثير البكاء ، قليل الفرح ، ولاتمازح ، ولا تصاخب ، ولا تمارِ ، وإذا سكت فاسكت في تفكر ، وإذا تكلمت فتكلم بحكم .

يا بني إذا أنعم اللّه عليك بنعمة فلير أثرها عليك في شكرك وتواضعك وإحسانك إلى من هو دونك .

واعلم يا بني أن لكل شيء آفة ، وآفة العمل : العجب .

لاترائي الناس بما يعلّم اللّه منك غيرك ، ولا تعجبن بما تعمل وإن كثر ، فإنك لاتدري أيقبل اللّه منك أم لا .

يابني : أشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك ، فإنه لابقاء للنعمة إذا كفرت ، ولا زوال لها إذا شكرت .

يا بني : إذا جاءك الشيطان من قبل الشك ، فاغلبه باليقين ، وإذا جاءك من قبل الكسل فاغلبه بذكر القيامة ، وإذا جاءك من قبل الرغبة فاخبره بأن الدنيا زائلة ، يا بني أكثر التبسم في وجوه أصحابك ، وكن كريما معهم ووافقهم على كل ما يقربك إلى اللّه تبارك وتعالى ويباعدك عن المعصية ، وإذا استعانوك فأعنهم ، وإذا رأيتهم يعملون فاعمل معهم ، وإذا تصدقوا فتصدق معهم ، واسمع لمن هو أكبر منك ، ولا تجالس السفيه ، ولا تخالط ذا الوجهين ، وأطفئ الشر بالخير .





الفصل السادس عشر

في الصباح الباكر تستأذنه زوجته الذهاب مع ابنها لالتقاط شيء نافع من بقول الأرض .

يأذن لها بذلك موصياً إياها الحذر الشديد .

قالت : إن شاء الله يالقمان سنعود أوان الغداء حتى أرسل لك الطعام إلى العمل .

يخرج لقمان من بيته، وتتجه زوجته برفقة (ثاران) نحو سعة الأرض بحثاً عن شيء يؤكل من أعشاب الأرض .

يمضي لقمان نحو عمله بنشاط ، وكأنه يذهب إلى الصلاة ، يلقي السلام على جارين نقيضين في علاقتهما بالإيمان :

الأول لايعرف عن الله سوى أنه يضع المطيعين في الجنة ، ويقذف العصاة في النار .

يسعى جهد إيمانه ليُدخله الله الجنة ويبعد عنه النار .

كل شيء لديه في الدنيا يسخره لهذه الغاية التي أخذها في ظاهرها ، يؤدي أركان الإيمان ولو قسرياً حتى لاتفوته طاعة ، ويقف متثاقلا بين يدي ربه يؤدي عبادة ، وعن غير قناعة أو رضى يزكّي أمواله .

يصوم وهو يشعر باستياء لأنه لابد من الصوم حتى يقيه الله النار ، يقوم بأداء الأوامر الدينية وهو مغمض القلب والعينين ، وهكذا يبلغ مرحلة يشعر فيها بأن الإيمان يضطهده ، لكن لأنه مؤمن ، فإنه يستمر في طاعته دون أن يتذوق شيئا من حلاوة الدنيا ، فيكون راغباً في الموت حتى يتخلص من هذه العبادات التي يقوم بها مُكرهاً .

يمسي الإيمان عبئا يثقل كاهله ، يقوم بما يجب أن يقوم به رهبة ويحذر كل الحذرمن زلة لسان ، أو نظرة مريبة ، أو مقدمة معصية .

يجنب نفسه وأهليه أماكن ازدحام الناس ، أو التسوق ، أو أي مظهر من مظاهر الفرح التي قد تفتح عليه باب المعاصي . بيته صامت ، لاحراك ، لاصوت ، وهو يمضي في الشارع مطأطِئ الرأس وفي عجلة حتى لاتبدر منه نظرة تكون بداية لمعصية ، وعندما يلتقي أحدا لايتحدث خشية أن يتفوه بكلمة تغضب الله ، فهو إن تكلم لابد من ذكر شخص ليتحدث عنه ، وربما تخرج منه كلمة سوء بحق هذا الشخص فيكون قد اغتابه وهو يدرك مدى عقوبة من يغتاب الناس ، فمن الأفضل له ألا يتكلم ، وكذلك من الأفضل ألا يستمع إلى حديث الناس فهو قد يكون شاهداً سواء في الدنيا والآخرة ، وقد يعاقبه الله لأنه سمح لنفسه أن يستمع إلى غيبة أخوته حتى يجد نفسه محصورا بين الذهاب إلى عمله والعودة إلى البيت .

إنه يضيّق على نفسه وأهله مساحة الدنيا بما رحبت ليحجّمها في بيت صغير .

ينظر إلى الله على أنه يترقب في كل لحظة منه أي معصية ليحاسبه عليها ويقذفه في النار .

إلى جوار هذا الرجل المؤمن يقطن الجار الثاني الذي يرى أن الإيمان هو حالة مفتوحة نحو معرفة مفتوحة لله ، والناس أجمعين ، فيسعى بكل جهده في مناكب بلاد الله الواسعة ، ويتعرف على كل فئات وطبقات الناس، يسعى لتعلم ألوان المعرفة .

كل شيء وُجد ليتعرف من خلاله على الله ، لايوم يمر عليه دون أن يكون قد تعرف فيه على الله أكثر مما كان يعرفه البارحة ، كل حواسه ومدركاته هي موجودة فقط لتشرق بنور الله. تؤدي به معرفته إلى التعرف على قوة عدالة الله وقوة مغفرته ، هذه المعرفة تبعث في نفسه حالة كبرى من الطمأنينة الروحية ، فكل مايحدث له هو موظف من الله لخدمته سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فكان لابد من أن يلقى الجوع حتى لايفرط

ثانية بماله ، وكان لابد من ألايتزوج ممن كان يبغيها لأنه حمد الله فيما بعد أن الزواج بها لم يتم .

إن عدل الله يجعله في حالة من السكينة والأمن يستمد منهما راحة نفسية مابعدها راحة وما كان ذلك له لولا سعيه الحثيث في البحث المتواصل عن الله في كل شيء .

يبلغ مرحلة من الهدوء الروحي يدرك معها أن أي شخص مهما علت مكانته أو وجاهته لايستطيع أن يدنو من مملكته البهية هذه ويشاركه الجلوس تحت ظلال أشجار زيزفونها ، فهو يملك كنز الإيمان الخالد الذي لايضاهيه أي كنز آخر ، إنه يسطع بشمس إيمانه ، وشمس معرفته الكبرى لله ، فإن عاش فهو في عدل الله ، وإن مات ترك ولده وأهله في عناية عدل الله ، وذهب هو الآخر مرة أخرى إلى عدل وعفو الله في الآخرة .

إن سعى في أمر وأفلح علم أن ذلك لخيره ، وإن فشل علم أن نجاحه كان لشره .

إنه مكافح ناشط يقوم بما يقدّره عليه الله ويرضى بالنتيجة أياً كانت. أما إذا وجد نفسه في معصية ، علم أن الله واسع الرحمة يغفر الذنوب جميعا حتى لوكانت كزبد البحر ، وأدرك بأن الحسنة تمحو السيئة .

إنه يعرف الله ويحبه ، وبناء على هذه المعرفة والمحبة تأتي العبادة إلى نفسه نوراً وضياء وسكينة ، فلايريد معها أن ينتهي عمره حتى يبقى أطول حين بين يدي ربه وهو يتأنى في عبادته ويتذوق عسل العبادة من شهدها منشرح الصدر ، مفتوح القلب والعينين .

إنه يوسّع على نفسه وعلى أهليه قدر معرفته لما وسّع عليه الله ، ينظر إلى الله على أنه ينتظر كل لحظة منه استغفارا وعملا صالحا ليغفر له ويُدخله الجنة .

لايتخيل لحظة واحدة تمر عليه دون أن يزداد إيمانا بالله ، هذا الإيمان الذي اقترن معه بالحياة ذاتها فيتمنى طولا لعمره حتى يتمتع بنكهة الإيمان ويرتقي في درجاته إلى أقصى ما يمكن من معرفة الله .

ينظر لقمان إليهما ، ثم يكمل مسيره ، يتأمل منظر الحياة في مطلع يوم جديد ، و ينظر في إشراقة الصباح على محيا الأشياء ، ويستعيد في ذهنه ذات المناظر في المساء ، هل يحمل شكل شجرة في المساء ذات الملامح التي يحملها في الصباح ؟ هل يحمل وجه البقرة في الظهيرة ، ذات الملامح التي يحملها في منتصف الليل ؟

تمضي بجسده العجوز خطواته نحو العمل ، تمضي به وهو مستغرق في تفكير عميق ، يبدو للعيان كأنه يحمل جبلا على ظهره ، إلاّ أنه يصر على عدم الخضوع لذاك الثقل .

يؤمن الإنسان الذي يعيش في الأرض بعلاقته الوثيقة بالسماء. فهو، وخاصة في أوقات الشدة، يرفع بصره إلى الأعلى ، وحتى رزقه الذي في الأرض يأتيه رغدا من الأعلى، وهو كائن أرضي مسكون بالتأمل في السماء سواء شاء ذلك أم لم يشأ ، وباحث في كل لحظة عن أسرار لايعلمها سواء رغب في ذلك أم لم يرغب . وبالمقابل ، فإن الإنسان يحظى بعناية الله منذ اللحظة الأولى التي سواه فيها ، وربما يكون من أكثر المخلوقات حظا على الإطلاق ، فهو يتمتع بكل نِعم الأرض، ولديه طاقات هائلة للاستمتاع حتى بألفاظ حديث شائق ، أو بافترارة ثغر، أو بنظرة، أو حتى بالحزن .

كل ما يقوم به الإنسان خلال اليوم والليلة يحقق له المؤانسة والانسجام، والتآ لف.

إذن، ياخليلي الإنسان الذي في الأرض ليس لديه شيء يقدمه لربه الذي في السماء ، لأنه لايملك خزائن شيء ، ولايملك الجديد الذي يمكن أن يهديه إلى ربه ، وحتى العبادة فهي ليست أكثر من محاولة شكر من الإنسان

للّه الذي وهبه كنوز النعمة ، هذا الشكر الذي لاينفع اللّه بشيء لأن الناس جميعا لوعصوه حتى لم يبق عابد واحد على سطح الأرض لما ضره ذلك بشيء ، ولو عبدوه جميعا حتى لم يبق كافر واحد لما نفعه ذلك بشيء ، إنه في غنى عن عبادة الناس له ، وهم الذين لايستغنون عن عبادتهم له ، وهنا يود الإنسان أن يكثر من العبادة والقربات إلى اللّه حتى يغفر له ذنوبه وحتى يبارك له صحته وماله وعياله ، وحتى يُبقي له أثرا حسنا في الحياة و يخرجه منها مخرجا طيبا .

كلما يزداد الإنسان إيمانا باللّه ، فإنه يزداد توازنا في الحياة .

علاقة الإنسان بربه هي كعلاقة الأرض بالسماء ، السماء التي لاتحتاج إلى الأرض حتى تكون سماء ، بيد أن الأرض تحتاج إلى السماء حتى تكون أرضاً ، وليس بوسعها في أي حال من الأحوال أن تستغني عن السماء التي تهبها كل مقومات الحياة والاستمرارية ، بيد أن الأرض لاتقدم للسماء شيئاً ، ولاتملك أن تقدم للسماء شيئاً مجدياً يمس مقومات الاستمرار .

هناك ياخليلي تشعر بأنك تستمد قوتك من رحاب هذه العلاقة النورانية المباركة ، تشعر بانتصارك على كل مشاعر الوهن التي لاتجسر الدنو منك ، لأنك ممتلئ بذكر ربك ، ممتلئ بسكينة ربك ، ثم إنك كلما رأيت شخصا قويا ، أو كائنا قويا ،رأيته يتجرد من قوته وأنت تنظر إلى قوة اللّه التي تقف إلى جانبك والتي لاتضاهيها قوة على الإطلاق .

وهنا حتى الوساوس التي تأتيك من نفسك ، أو من الشيطان ، أو من أي مخلوق يريد إلحاق أذى بك ، لاتنجح في مهمتها لأن علاقتك القوية مع ربك تجنبك الخوض في التفاصيل التي يمكن للشيطان أن يسكنها ، ويفعّل داخلك حالة الوسوسة ، فكل يوم هو يوم جديد بالنسبة لك ، وكل ساعة هي ساعة جديدة تفعل فيها شيئا جديدا يمكن أن ينفع الناس ، وينفع المقربين منك ، وينفعك في درجات القيم والارتقاء ، ومساحات التسامح وعمل الخير

في الناس .

حدود الله هي حدود تحدد للإنسان مسار حياته .

ليست حدوداً تفصلك عن أذى الله، بل هي حدود تفصلك عن أذى نفسك أولا ومن ثم أذى الناس .

عندما ترى ميتة على الطريق ، و ترى حد الله من تناول لحم هذه الميتة ، بيد أنك تتجاوز حد الله و تأكل من هذا اللحم ، هل ستلحق أذى بالله ، أم يلحق أذى بك؟

عندما يودع شخص أمانة لديك ، فيقضي حدّ الله أن تؤدي الأمانة إلى صاحبها ، بيد أنك لوتجاوزت هذا الحد و أنكرت على المؤتمن أمانته ، هل تؤذي الله أم تؤذي نفسك وتلحق الأذى بمن ائتمنك؟

يمكن لك أن تأخذ ذلك مثالاً في سائر حدود ربك ، فهذه الحدود تُزال عندما تأتيها من بابها الطيب المشروع العلني ، فعندما ترى حدّ الله في الفاحشة ،فإنك تجد الإذن في عقد القران ، عندما ترى حدّ الله في الميتة، فإنك تجد الإذن في لحم طيب ،عندما ترى حدّ الله في السرقة ، فإنك تجد الإذن في العمل للحصول على مال حلال .

هذه أمور يمكن لك أن تلمسها و تراها بشكل مباشر ، لكن هناك أمور تكمن في الحدود لا تلمسها إلاّ بعد ردح من الزمن ، وهكذا كلما التزم المرء بحدود ربه فإنه يكتشف بشكل تدريجي أن الله ما نهى الإنسان عن شيء إلا كان فيه صلاح أمره ، و له في ممارسته مفسدة في ماله و بدنه و جاهه.

حياة لا إله فيها ، أرض خالية من نفحات الله ، إنسان لا رب له ، ينهض الناس صباحا فلا يجدون أثرا لشرع الله في الأرض ، يدركون بأن الله تخلى عنهم .

إنهم يعيشون خارج النظام الإلهي وليفعلوا ما يفعلوا ، لن يشملهم البعث،

الحسنة والسيئة سيان ، لا عقاب ولا ثواب ، لا جنة ولا جحيم . إنها حياتهم الدنيا وينتهون إلى عدم .. وما الذي يمكن أن يؤول إليه حال إنسان يقف في قلب واقع كهذا . ستتحول الحياة إلى غابة حقيقية ، وسيكتشف الإنسان بأن كل الموانع والسلطات الدنيوية لا تستطيع أن تصمد في وجه فلتات الإنسان من حدود ربه . ولن يكون بوسع الحياة أن تستمر قرناً واحداً في غياب حدود الله عنها وهي التي استمرت وازدهرت سنة بعد سنة ، قرناً بعد قرن لحدود الله فيها .

فلأجل أي شيء يقدم الإنسان على حسنة ، ولأجل أي شيء لا يقدم على اقتراف سيئة . لأجل أي شيء يصدق ، ولأجل أي شيء لا يكذب . سيتبين للناس بأن وجود الله هو الذي كان يحد من ارتكاب كل هذه الجرائم الكبيرة والصغيرة التي باتت ترتكب دون ضابط ، سيتبين للناس بأن وجود الله هو الذي كان يجعل الغني يعطي المحتاج زكاة ماله . سيكتشف بأنه غير قادر على الاستمرار في الحياة دون رب ولن تبقى له غير الذكرى مما قد سلف.

إن أرض الله مليئة بالآيات التي يمكن للإنسان أن يتعلم منها حتى أنه يغدو - في أعلى مراحل التعلم - عالما تفوح منه روائح الإنسان الطيبة ، فتنظر إلى هذا الإنسان تشعر بعظمة الارتقاء في الانفتاح على آيات هذه الأرض في الناس وفي الطبيعة الغنية بكل أشكال الحياة . وهذه من النعم الكبرى التي أنعم بها الله على الإنسان ياخليلي ، نعمة أن يأتي الله إنسانا من كنوز علمه ، ثم في مراحل متقدمة أخرى يخصه بمعارف لايعلمها غيره، فيرى بحدسه ونظره ما لايراه ولايحدسه غيره من الناس .

تراه إن نظر في وجه ، علم ما وراء معالم صاحبه .

إن استمع إلى صوت ، استبطن نبرات خفية من خلال ذاك الصوت .

إن رأى حادثاً ، أخذ منه العبرة بقوة الملاحظة التي يمتلكها .

وما ذلك إلا لأن سمعه يتلقى الأصوات بشيء من خصوصية ،

نظره يقع على الموجودات بشيء من الاستثنائية ،

حواسه تنبئه بأحداث وشيكة الوقوع ، فهو مدرك بأنه وريث الأنبياء ، وبناء على هذه المكانة النفيسة التي وهبه إياها الله ، فهو يتمتع بخصال لايتمتع بها غير الأنبياء ، حتى علاقته بالله تعبق بهذه المزايا . فقد جعله الله خليفة وأورثه الأرض وبوأه فيها يتخذ من سهولها قصوراً وينحت الجبال بيوتاً .

دوما يا لقمان يمكن أن تنظر إلى أن الله يمنحك ما يمكن أن تكون مبذرا فيه ، وبذات الوقت يمنحك حرية أن تكون مبذراً ، أو تكون مقتصداً .

أنت الآن تجلس إلى مائدة عليها ألوان متعددة من طعام شهي وشراب سائغ .

منحك الله هذا الطعام ، ومنحك شهية وقابلية لتناول هذا الطعام، بيد أنك من تلقاء نفسك تترك شيئا على هذه المائدة قبل أن تضجرمنه، بل تنهض وفي نفسك رغبة في البقاء مزيدا مع مسامريك .

هنا تشعر بقوتك على نفسك وبسيطرتك على زمامك و أنك لا تُقاد، بل تقود ، لا تذعَن ، بل تُذعِن .

ثم ترى هذا بشكل تلقائي يجري على سائر ممارساتك و سلوكياتك في الحياة وفي الناس وفي نفسك .

إن الله يرزقك بشيء من مال ، لكن ليس مطلوبا منك أن تنفق هذا المال في يوم .

هذه هي المسؤولية الحقيقية التي يهبك الله إياها ، فهو يعطيك زاد يومك و زاد غدك وما بعد غدك وربما زاد عمرك كله في يوم واحد أو شهر واحد أو سنة واحدة ، تبقى أمامك أن تكون مقسطا في هذا الزاد و ألا تنفقه جملة واحدة .

هنا يكون القسط نقيض التبذير خلاف ما يُظن للوهلة الأولى على أنه شكل من غل اليد . إنك تحتاج القسط في سائر حياتك حتى تقي نفسك الهمجية و الفوضى ، وهذا بذاته يكون نقيض البخل الذي هو مذموم في الشرائع والأعراف و المبادئ الإنسانية، لأن البخل نقيض القسط ، فالبخيل يغل يده إلى عنقه ولا ينفق شيئا مما آتاه الله سواء على نفسه أو على الآخرين .

الحياة هنا تقترن بوجود الله في نفس هذا الإنسان ، فهو يقدم كل هذه السلوكيات لأنه مؤمن بأن الله يرى كل هذه المواقف منه ، ثم إن هذه الأعمال الصالحة وإن كانت تلبث في الأرض إلا أنها تصعد إلى السماء أيضا حيث سيلحق بتلك الأعمال ويكون معها .

على هذا المفصل يشرق نور دين الله أمام الإنسان ، ليس المؤمن بالله فحسب ، بل المؤمن بقيم الإنسان فيه ، المؤمن بروح العطاء وفعل الخير ، المؤمن بحب الإنسان لأنه يشعر ويعيش حالة رباط قوي بينه وبين أي إنسان يراه ، إنه يرى نفسه في الآخرين ، ويرى الآخرين في نفسه ، فلو كان الإنسان دون إله للبث في حالة الفوضى هذه ، ولكان أبأس الكائنات في الوجود، لكنه كائن محظوظ لأن له إلها ، وله خالق ينظم له هذه الحياة التي يعيشها وينقذه من حالة الفوضى الكامنة في أعماقه ويفقهه في حب الخير والحكمة، فتتحول الظلمات إلى أنوار ويمسي الغموض وضوحا ، ويتحول المجهول إلى مدارج مضيئة أمامه .

إنها التعاليم الكبرى من إله شاء أن يخلق هذا الإنسان وشاء أن يوليه عنايته وشاء أن ينظر إليه بالرحمة .

الإنسان كلما استوعب هذه الآيات من الله ، اتسعت مداركه وانفتح نضجه وانتظمت حالة الفوضى في نفسه ، هذا التنظيم الذي يهب لحياته معنى ، ولوجوده كإنسان قيمة غنية .

إن ما يساعد الإنسان على أن يخفف من الفوضى غير المنظمة هو العقل الذي قسمه له الله ، هذا العقل الذي يجعله منضبطا بسلوكه الإنساني وغير متبع لغرائزه العشوائية .

فالمتعة ، كل المتعة تكمن في مدى المقدرة على قمع تلك الغرائز العشوائية أكثر مما تكمن في تحقيقها ، لأنك عند ذاك تشعر بأنك قادر بشكل فعلي على قيادة نفسك دون أن تتمكن شهواتك أوغرائزك المادية والمعنوية من قيادتك نحو أودية الشتات ، ثم إنك هنا تمتلئ شعوراً بأنك قادر أيضاً على قيادة أسرتك .

فأنت تشعر بالاعتزاز ، نقيض ذاك الذي يفقد هذا الشعور بالاعتزاز، وهذا المعنى بالبطولة وهذا الإحساس في القيادة الذي يجعله يميل إلى العبث و اللاالتزام نتيجة فيضان متاهات الفوضى العارمة التي يمضي بمشيئتها .

هنا تدرك بأن الإنسان يقرر ما يكونه في الحياة ، يقرر أن يكون طيبا ، أو يكون خبيثا ، أن يتمتع بسمعة طيبة ، أو يتمتع بسمعة سيئة ، وتدرك هنا أن النجاح لايتحقق بالأمنية فقط ، كما أن الفشل لايتحقق بالأمنية فقط ، مثل أن حصولك على طعام من نتاج جهدك لايتحقق بالأمنية فقط ، كما أن حصولك على طعام بسطو لايتحقق بأمنية فقط .

إنك تحتاج إلى الصبر على عملك ، تحتاج إلى تحمل المشاق ، والمتابعة ، والإصرار حتى تبلغ هدفك الذي طمحت فيه وتمنيته لنفسك .

ترى شخصا يأتي إلى عمل وهو يجر خطاه ، وكأنه يأتي «جبر الخاطر»، كأنه يبحث عن أي حجة حتى يتراجع ليقول في الناس بأنه إنسان غير محظوظ ومكتوب عليه الفشل في كل عمل . إلى جانبه ترى شخصا يصر على عمله حتى لو لم يحالفه الحظ مرة واحدة ، إنه لايفقد الأمل لأنه يقرن حياته بعمله فتراه يبلغ الهدف ولو متأخرا فيكون أفضل من جاره الذي

ركن إلى اليأس ولبث فاشلا في الحياة لامكانة له ، ولا بيت ، ولا أصدقاء ، ولا أسرة حميمة ، ولا مكانا طيبا في محيطه . وهنا يكون أمامك أن تنظر بشيء من التأمل بأن الإنسان هو عمله ، وهنا يتسع صدرك لتأخذ مساحات أخرى من التأني في جل خطوات حياتك .





الفصل السابع عشر

لقمان الحكيم ..

ولي الله ..

إنه الرجل الذي ملأ الدنيا بحكمته .

حتى النبي داود أشاد بحكمته

انظروا إلى مسيره على أرض الله

إنه أسود ، لكن وجهه منار بنور الحكمة

انظروا إلى تواضعه حتى في إلقاء السلام

إنه الرجل الذي يمكن للمرء أن يتعلم منه الكثير .

تعلو أصوات الناس وتنخفض ، وهو يمضي وسط حشودهم ، ينهض الجالس احتراما لمروره أمامه وإلقاء السلام عليه .

يتحاشون الاقتراب منه حتى لا يسببوا له حرجاً ، وهو الشيخ المسن الذي لن يرد أحدا حتى لو وقف يسأله ثلاثة أيام متواصلة .

يفضلون الذهاب إليه في البيت ، أو في العمل ، أو رؤيته في مناسبة ما للتزود من حكمته ومعارفه ، وهم يوقنون أن مجرد وجوده معهم في الحياة يخفف عنهم الكثير من آلام الحياة ، عندما ينظرون إليه يعتريهم إحساس بالسكينة وراحة النفس .

يدب بخطواته على الأرض ، وينظر إلى الألوان بدهشة ، ينظر كأنه يدخل الحياة أول مرة ، حتى زوجته عندما ينظر إليها في الصباح ينتابه إحساس بأنه ينظر إليها لأول مرة ، وأنه سوف يرى فيها شيئا لم يره من قبل ، إنه دائم التوقع لوقوع مفاجآت لاتخطر له على بال ، ويعلم بأن مساحة الجهل لديه هي أوسع أضعاف المرات من مساحة العلم .

تأخر موعد الغداء ، ولم يقبل ثاران حاملاً له الزاد ، راوده وجل ، فاتجه

صوب البيت .

ولج بخطوات باردة كبرودة البيت الذي لاحراك فيه ، وعلى عجل خرج نحو سعة الأرض بحثا عن زوجته ، وابنه .

لبث يركض وهو ينادي باسميهما حتى لفت نظره منظر مروع .

تقدم منه وإذا ببقايا عظام ولده وامرأته مع ثيابهما الممزقة .

أدرك عندئذ أن الذئاب نهشتهما .

لبث ينظر بذعر ، وهو يتخيل تلك الوحشية التي تتبعها تلك الحيوانات الشرسة في ظل قانون القوة ، ولايدري لماذا خطر له في تلك اللحظة أن يقارن بين ما يقوم به الإنسان بحق الإنسان ، ويرى أنه قد يفوق ما يقوم به الحيوان الفتاك بحق الإنسان ، أو بحق فريسة ضعيفة تقع بين أنيابه .

عاد لقمان وحيداً ، وكأنه لم يتزوج قط ، كأنه لم يصبح أباً قط . إنها ذات الحدة التي يعيشها ، ذات العزلة التي أمضى فيها حياته .

بعد نحو ستة شهور خطرت له فكرة الهجرة من هذه البقاع .

لم يتردد في بيع البيت وما يحتويه من متاع ، أعاد الديون إلى أصحابها، واتجه نحو ديار الملك والقاضي والنبي داود الذي ذاع صيته ، وكثرت الأحاديث حول شخصيته .

هذا الرجل الغني في شخصيته وكثير الأحداث والأقاويل والإشاعات ، وكذلك كثير العبادة والحكمة والمعرفة والشجاعة ، وهذا الرجل المزواج.

بدأ ظهور داود عندما كان شاباً صغيراً يرعى الغنم لأبيه، كان ذلك عندما ظهر جالوت متحديا بني إسرائيل ، وطالبا أي شخص يمكن أن يبارزه .

كان داود قد ذهب إلى جيش طالوت ليطمئن على إخوته الثلاثة في ذاك الجيش ويعود لينقل أخبارهم لأبيه .

علم داود عن جبروت هذا الرجل الذي ينذر بهزيمة جيش طالوت الذي من ضمنه إخوته الثلاثة ، عند ذاك سأل داود عن مكانة الرجل الذي سوف يتمكن من قتل جالوت الجبار، فقيل له بأن الملك طالوت سوف يزوّجه ابنته، ويغدق عليه المال والجاه جزاء له لانتصاره على العدو الذي يهدد ملكه .

امتلك داود الشجاعة الكافية ليقدم على هذه المخاطرة بحياته ، وهو الشاب الصغير في مواجهة جبروت جالوت الذي يرهبه ويخاف لقاءه جل مقاتلي بني إسرائيل ، بل إنه يتحدى المقاتلين ويستفزهم ليدنو أحدهم منه .

عندئذ يتقدم الشاب يسبقه صوته إلى ذاك الرجل ، فيبدي جالوت ازدراءه، ويجيبه باستهزاء، فهو يبحث عن المقاتلين الشجعان لمبارزته، لا عن فتى يشعر بخجل التبارز معه ويجعله من مستواه في الشجاعة والقوة.

في تلك اللحظة زوّد داود مقلاعه بحجر ورمى به بمهارة وخبرة ليقع الحجر بقوة الدفع على جبهة جالوت ويقع من إثر ذلك على الأرض ، وعلى عجل سارع إليه داود ودون أي تردد رفع سيفه وقطع به رأسه .

لم يصدق أحد أن ذلك قد حدث بالفعل ، وأن ذاك الكابوس الذي كان يهدد جيشا بأكمله قد أزاحه شاب في مقتبل عمره ، بيد أنها الحقيقة التي فعلت فعلها وجعلت الهزيمة لجنود جالوت أمام مشهد موت قائدهم الحتمي مما جعلهم كشياه دون راع في وحشة عراء .

سرعان ما بلغ الخبر أسماع طالوت الذي فرح شديد الفرح ، ورغب في رؤية هذا الفتى الذي قام بهذه البطولة .

كان الانتصار الأول الذي يحققه هذا الفتى الذي غدا له عهد في ذمة الملك طالوت بأن يزوجه ابنته ، وبالفعل لم يجد طالوت أي مخرج سوى أن يفي بعهده مع هذا البطل ، فتزوج داود من (ميكال) ابنة الملك طالوت ، ثم

أعطاه مالا مكافأة له ، ووفاء بالعهد .

داود بن يس بن عوبيد بن عز بن سلمون بن نحشون بن عمّينا داب بن حصرون بن فارص بن يهود بن يعقوب .

بغتة يغدو اسما لامعا في بني إسرائيل يشار إليه بالبنان ، يُضرب به المثل لشجاعته ، ثم يحقق انتصارات أخرى ، فيشعر طالوت بخوف على ملكه من هذا الفتى الشجاع الذي يقود الحروب ويحرز الانتصارات الباهرة فيها ، فتخطر له فكرة التخلص منه بأي طريقة كانت خوفا على ملكه ، فهو بهذه الشجاعة يكتسب ثقة المقاتلين ، وثقة عموم الناس ، وهو الذي يقود الجيوش ويحمي المُلك والأمن .

استطاع داود أن يدرك بأن الملك يسعى إلى التخلص منه ، وقد فعل ذلك أكثر من مرة إلاّ أن المحاولات باءت بالفشل ونجا من موت محقق ،ورغم ذلك لبث داود مخلصا ، يقدم له الطاعة .

في بعض الوقائع أظهر له داود بأنه يستطيع أن يتخلص منه وينتزع منه المُلك كما توسوس له نفسه ، لكنه لا يفعل ذلك ، وهو لا يريد إلاّ أن يحسن به الظن .

لكن طالوت لم يستطع أن يتوصل إلى ثقة كاملة به ، ولبثت الوساوس تشتعل لديه نحو هذا الفتى رغم إخلاصه الشديد ، وأنه بالفعل لو أراد أن يتخلص منه وينتزع منه الملك لفعل في فرص سانحة ، إلاّ أن ذلك لم يكن يخطر على باله .

عند ذاك يئس داود من الملك الذي لا يوليه أي ثقة وينتهز كل فرصة للتخلص منه ، فما كان عليه إلاّ أن تركه وشأنه ، وانفصل عنه بهدوء .

عند شيوع نبأ انفصال داود عن طالوت ، شُنتّ عليه الحروب التي قضت عليه مع ثلاثة من أولاده .

في ذاك الوقت كان النبي صموئيل قد اتخذ موقفا سلبيا من طالوت بسبب معاملته السيئة لداود ، ورأى أنه أفضل مَن يمكن أن يتولى الملك بعد هذه الهزائم التي تسبب بها طالوت وأودت بحياته وحياة ثلاثة من أولاده ، وهزيمة جيشه ، وزحزحة الملك .

أمام تلك الدعوات قَبِل داود أن يكون ملكا ، صعد إلى حبرون ، وحضر رؤساء سبط يهوذا لهذه المبايعة ، لكن ذلك لم يمنع بعض أسباط بني إسرائيل من تشكيل جيش بقيادة ابن طالوت (إيشبوشت) لمواجهة جيش الملك داود .

احتدمت حرب فتاكة بين الجيشين حتى هُزم جيش إيشبوشت بمقتل قائده ، الأمر الذي جعل داود ملكا على عموم بني إسرائيل وقد بلغ ثلاثين سنة من عمره .

بعد ذلك آتاه الله النبوة ، وجعله رسولا إلى بني إسرائيل .

انظر يالقمان إلى الحروب التي يخوضها الإنسان ضد الإنسان في سبيل إرواء غريزة التملك .

يقدم الإنسان على قتل الإنسان ، عندما يمتلئ حقداً

ليس بوسع الإنسان أن يفعل شيئا دون أن ينير الحب دروب أقدامه ودروب أفئدته ، لن يكون الإنسان قويا إلا إذا أشرق بنور المحبة ، ونور الأخوة الإنسانية ، ليس بوسعه أن يسترد قوته التي خسرها في حروبه الخاسرة مع بعضه البعض بالدرجة الأولى إلا عندما تكون طاقة التسامح في نفسه أعلى من طاقة العقاب ، عندما يحب بعضه البعض ويحب الآخرين كحبه لبعضه البعض ، عندما ينظر بأن النصر لن يكون بقوة السيوف ، و فقط الموت ، ولاشيء غير الموت يكمن له ولغيره في ساحات السيوف .

لن يكون بوسع الإنسان أن يكون قوة عظمى في الأرض إلا إذا كان قبل

ذلك محبة عظمى في الأرض .

المؤمن يحقق شعائر دينه قدر تفاعله مع أفراح وأحزان الناس من حوله الذين هم من ملل وعقائد وأديان أخرى ، ويكون مقصرا في تحقيق شعائر دينه كلما جعل نفسه وأهله في قطيعة وعزلة عن إخوانه هؤلاء ، لايفرح لفرحهم ولايحزن لحزنهم ، أو يفرح لحزنهم ويحزن لفرحهم ، ويسعى إلى قطع كل صلة بهم ، فلا سلام ، ولا حديث ، ولا صداقة ، ولاشراكة عمل ، ولازيارات ، ولاشراء متاع منهم ، أو بيع متاع إليهم .

جاء الدين ليفتح كل أبواب المحبة التي كانت مغلقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، ويغلق كل أبواب البغضاء التي كانت مشرعة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وليقول للناس أجمعين بأن الأرض هي بيت الإنسانية كلها في عائلة بشرية متحابة ، وليست العبادات وحدها هي التي تحبب الناس إلى الله ، بل المحبة والتسامح والسخاء .

ليس للإنسان غيرنزع الحقد من داخله حتى يستطيع أن يعيش حالة توازن وازدهار في مجتمعه ، وإذا نظرت إلى مراحل السلم التي نعمت بها المجتمعات البشرية ، سيجلو لك بأنها مجتمعات متعاضدة متحابة فيما بينها بالدرجة الأولى وأن راية المحبة فيما بينها تعلو كل الرايات ، هذه الراية التي تجعل كل فرد من أبناء هذا المجتمع مهما كان لونه أو لسانه أو معتقده يشعر بحالة عائلية كبرى نحو المجتمع الكبير الذي ينتمي إليه .

المجتمع الإنساني الذي يعيش فيه هو عائلته الاجتماعية والانتمائية الكبرى لايقل حميمية وانتمائية عن عائلته الصغيرة في بيته الصغير .

إنه يشعر بالقوة على قدر قوة تماسك أفراد هذا المجتمع وتعاضدهم وتحاببهم ، هذه القوة التي هي الوحيدة الكفيلة بتصدي هذا المجتمع لأعتى الرياح .

على مر العصور فإن الملوك يؤدون أدوارهم ويذهبون ، يمرون مرور

الكرام ، أو مرور اللئام من حقبة صغيرة في ديمومة الإنسانية ، الإنسان الذي هو الثروة الباقية المفتوحة التي لانهاية ولاحدود لها ، الذي هو مَلَك الأرض وهو سيدها الأوحد وهو مستقبلها .

ثمة نسيج إنساني متداخل ليس بوسع أحد أن يفككه ، وفي النهاية وبعد دهور من حروب أهلية ونزف داخلي ، فإن الإنسان لايجد غير أن يركن إلى بعضه البعض لأنه يكتشف بأن قرية واحدة لاتكوّن مدينة ، وأن لغة واحدة لاتصنع عالماً ، وأن قوما واحدا لايقدم حضارة ، وأن عقيدة واحدة لاتهب غنى .

يعلم لقمان الحكيم أن الله قد أعطى هذا الرجل الكثير من الميزات والقدرات والصفات .

آتاه الله الحكمة ، وفصل الخطاب ، وسخّر له الجبال والطير يسبحن معه في العشي والإبكار .

كما أن الله أنعم عليه بصوت بالغ الحسن ، وهو الذي ينشد بعذوبة صوته، ويصدح مسبحا ربه ، وذاكرا أفضاله عليه .

يتوق لقمان إلى أن يستمع إلى صوته وهو يتغنى بكلام الله في الزبور،

من جهة أخرى تسبّح معه الجبال ، ويغرّد معه الطير .

يريد أن ينظر إلى هذا الرجل الذي ألان له الله الحديد ، فيكون بين يديه كما يشاء ، يستجيب له كما تستجيب الطيور ، وتستجيب الجبال .

إضافة إلى أن له تجربة زواج مع نساء كثيرات .

لعل هذا يكون كافيا لتسرب شائعات شتى عن شخصيته ، يروّجها خصومه، وتنطلق بنحو متصاعد على ألسنة الناس من ديار إلى ديار .

وأغرب ما يرددون مما لا يصدقه عقل ولا يقبل به قلب مؤمن بنبوة داود

أن الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب حتى وقعت عند رجليه وهو قائم يصلي ، فمد يده ليأخذها ، فتنحت ، فتبعها ، فتباعدت حتى وقعت في كوة ، فذهب ليأخذها ، فطارت من الكوة ، فنظر أين تقع فيبعث في أثرها، فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها ، امرأة من أجمل الناس خلقا، فأتت منها التفاتة فأبصرته ، فألقت شعرها فاستترت به، فزاده ذلك رغبة فيها.

ويقال : فسأل عنها فأخبر أن لها زوجا ، وأن زوجها غائب بمسلحة كذا وكذا .

ويقال : فبعث إلى صاحب المسلحة أن يبعثه إلى عدو كذا وكذا ، فبعثه ، فقتل في المرة الثالثة ، وتزوج امرأته .

ويقال أيضا : فأشرف عليها لينظر أين وقعت ، فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل من الحيض ، فلما رأت ظله حركت رأسها فغطت جسدها أجمع بشعرها ، وكان زوجها غازيا في سبيل الله ، فقدمه في حملة التابوت فقتل ولما انقضت عدتها خطبها داود .

ويقال على نحو أكثر تصعيدا من ذلك وأبلغ في عدم إحترام أقوام لأنبيائهم: وأما داود فأقام في أورشليم وكان في وقت المساء عندما قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر ، فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد : أليست هذه بتشبع بنت اليعام ، امرأة أوريا الحثي .

فأرسل داود وأخذها فدخلت عليه ، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ، ثم رجعت إلى بيتها ، وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود ، وقالت: إني حبلى . وكتب في المكتوب يقول : اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة.

ويقال : كان داود قد بعث أوريا في بعث فصعد داود الحائط ليأخذ الطير وإذا امرأة أوريا تغتسل ، فنظر إليها داود وافتتن بها فكتب داود إلى قائد

جيشه : ضع التابوت بينك وبين عدوك وقدم أوريا .

فقدمه فقتل ، ثم تزوج داود زوجة أوريا .

ويقال : ما أصاب داود ما أصابه بعد القدر إلا من عجب عجب به ، فكره الله ذلك فقال : يا داود لأكلنك إلى نفسك يوما .

قال : يا رب فأخبرني به .

فأصابته الفتنة ذلك اليوم .

ويقال : كان يفرغ نفسه لعبادته يوما ، ويقعد في محرابه يوما ، ويقعد لبني إسرائيل فيحكم بينهم ، فلما كان اليوم الذي وعده الله عزوجل ، اشتدت عبادته وخلا في محرابه ، وحجب الناس عن نفسه وهو في محرابه يصلي .

فإذا بطائر قد وقع بين يديه جناحاه زبرجد أخضر ، فقام ليأخذه فطار الطائر ووقع على حائط بيت أوريا بن حنان ، وكان داود قد بعث أوريا في بعث فصعد الحائط ليأخذ الطير ، وإذا امرأة أوريا جالسة تغتسل ، فلما رأت ظل داود نشرت شعرها وغطت به بدنها .

نظر إليها داود فافتتن بها ورجع إلى محرابه ، فكتب داود إلى صاحبه الذي بعثه أن ضع التابوت بينك وبين عدوك وقدّم أوريا بن حنان بين يدي التابوت .

فقدمه فقتل .

ويقال أن داود كتب إلى صاحبه: أن لا تقدم أوريا بين يدي التابوت ورده.

فقدم أوريا إلى أهله ومكث ثمانية أيام ثم مات .

ويقال : إن المرأة إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوج بعده أبدا ، وأول من أباح الله له أن يتزوج امرأة قتل بعلها كان داود ، فتزوج بامرأة أوريا لما قتل ، وانقضت عدتها منه .

إنه الرجل الأكثر تعرضا للتجريح ، والأكثر قوة ونفوذا في هذا العصر .

في الماضي كان دور النبي يكاد يقتصر على الإرشاد الروحي دون أن يملك النفوذ والجيوش والأموال ، الآن يقوم هذا الرجل الكبير بالمهمتين الشاقتين معا ويحقق فيهما نجاحا بالغا .

قاتل مع الحنفاء فانتصر عليهم ، وقاتل أهل مؤاب فهزمهم ، وحارب أددازار ملك سوبا فانهزم تاركا له ألف مركب وسبعة آلاف من الخيل .

الآن يكاد يكون سيدا على زمنه يقف الآلاف من الجنود في استعداد تام ليلا نهارا في حراسة محراب عبادته ، إلى جانب ذلك فقد جعله الله نبيا ، وأنزل عليه كتابا ، وهو يقوم بمهمته النبوية والرسولية والمَلَكية والقضائية ماوجد إلى ذلك سبيلا .

يصوم يوما ويفطر يوما، يقوم نصف الليل، وينام ثلثه ، ويقوم سدسه.

إنه داود يا لقمان ، داود لأنه يداوي جرحه بود ، يداوي وده بالطاعة ، الرجل الذي يعيش الدنيا ، ويعمل للآخرة ، يتفاعل مع كل مجريات الحياة، وهو على صلة دائمة مع ربه ، إنه يحرك زمنا بأكمله .

يتتبع لقمان أنباء الرجل ، ويتعلم دروسا منها .

إنه الرجل الذي يقف لقمان أمام ذكره بتقدير ، ويسعى إلى معرفة أخباره .

الملك والنبي الثاني في تاريخ البشرية بعد الملك والنبي ذو القرنين (عياش) رغم العدد الهائل من تسلسل الأنبياء الذين لبثوا في النبوة دون أن يملكوا ، أو يتمتعوا بهذا النفوذ وهذه القوة .

يتصرف داود بالحديد بين يديه كما يتصرف بالنسيج ، إنه ينسج من زرد الحديد دروعا منسوجة ، ويقطّعه ، ويلويه بيديه كما يشاء .

وقد علّمه اللّه كيف يقضي في الناس بالحق ، ومما يرويه الناس أنه كان يصلي في محرابه وفجأة أحس بفزع وهو يرى شخصين وقد دخلا عليه المحراب رغم الحراسة الشديدة ، وتحذيره ألاّ يدخل عليه أحد وهو في حالة العبادة .

عند ذاك قالا : لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط .

ثم قال أحد الرجلين : لا تخف يا سيدي ، بيني وبين هذا الرجل خصومة، وقد جئناك لتحكم بيننا بالحق .

قال داود : ما هي القضية

قال الرجل الأول : إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ، وقد أخذها مني .

قال : أعطها لي . وأخذها مني .

قال داود دون أن يسمع الطرف الآخر وحجته : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الشركاء يظلم بعضهم بعضا إلاّ الذين آمنوا .

بعد انصرافهما أحس داود بأنه تسّرع في الحكم ، فهو لم يسمع صاحب التسع والتسعين نعجة الذي ربما كان على حق في ذلك ، فخر راكعا وسجد للّه واستغفر لذنبه ، وقد علّمه اللّه ألا يحكم بين المتخاصمين من الناس إلا إذا سمع أقوالهم جميعا .

يستمع لقمان إلى كل هذه الوقائع ، فيزداد سعة في النضج المعرفي ، ويزداد إدراكا بأن على المرء أن يتعلم من الناس جميعا ، من كبيرهم ، ومن صغيرهم ، من حكيمهم ، ومن سفيههم .

ويقال : بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما .

فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بابنك أنت .

وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك .

فتحاكما إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا على ابنه سليمان وهو ابن أحد عشر سنة ، فأخبرتاه فقال : أئتوني بالسكين أشقه بينكما .

قالت الصغرى : لا .. يرحمك الله ... هو ابنها .

عندئذ قضى به للصغرى .

داود ، ذاك الرجل الثري في كل شيء ، الثري في العزلة ، الثري بوجوده في الناس ، الثري بقوة الشخصية ، الثري بقوة الإصغاء إلى الآخرين والتأثر بآرائهم وأحاديثهم .

يقرأ الزبور بسبعين صوتا ، له ركعة من الليل يبكي فيها نفسه ويُبكي ببكائه كل شيء ، ويشفي بصوته المهموم والمحموم .

يروى للقمان أن داود خرج ذات يوم يقرأ الزبور ، وعندما يقرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر ولا سبع إلا جاوبه ، فما زال يمر حتى انتهى إلى جبل ، فإذا على الجبل نبي عابد يقال له (حزقيل) ، فلما سمع دوي الجبال وأصوات السباع والطير، علم أنه داود

فقال داود : يا حزقيل أتأذن لي فأصعد إليك ؟

قال : لا ...

فبكى داود ، فأوحى الله جل جلاله إليه :

يا حزقيل لا تعير داود وسلني العافية .

فقام حزقيل فأخذ بيد داود فرفعه إليه .

فقال داود : يا حزقيل هل هممت بخطيئة قط ؟

قال : لا ..

فقال : فهل دخلك العجب مما أنت فيه من عبادة الله عز وجل ؟

قال : لا ..

قال : فهل ركنت إلى الدنيا فأحببت أن تأخذ من شهوتها ولذتها ؟

قال : بلى ، ربما عرض بقلبي ..

قال : فماذا تصنع إذا كان ذلك ؟

قال : أدخل هذا الشعب فاعتبر بما فيه .

فدخل داود الشعب ، فإذا سرير من حديد عليه جمجمة بالية ، وعظام فانية ، وإذا لوح من حديد فيه كتابة فقرأ داود فإذا هي :

أنا (أروي سلم)، ملكتُ ألف سنة ، وبنيتُ ألف مدينة ، وافتضضتُ ألف بكر ، فكان آخر أمري أن صار التراب فراشي ، والحجارة وسادتي ، والديدان والحيتان جيراني ، فمَن رآني فلا يغتر بالدنيا .

ويقال أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى داود فقال : مالي أراك وحيداً ؟

قال : هجرت الناس وهجروني فيك

قال : فمالي أراك ساكتا ؟

قال : خشيتك أسكتَّني

قال : فمالي أراك نصبا ؟

قال : حبك نصبني .

قال : فمالي أراك فقيرا وقد أعطيتك ؟

قال : القيام بحقك أفقرني .

قال : فمالي أراك متذللا ؟

قال : عظيم جلالك الذي لا يوصف ذللني ، وحق ذلك لك يا سيدي .

قال الله جل جلاله : فابشر بالفضل مني ، فلك ما تحب يوم تلقاني ، خالط الناس وخالقهم بأخلاقهم ، وزايلهم في أعمالهم تنل ما تريد مني يوم القيامة .

يا داود كما لا تضيق الشمس على مَن جلس فيها ، كذلك لا تضيق رحمتي على مَن دخل فيها

وكما لا تضر الطيرة من لايتطير منها ، كذلك لاينجو من الفتنة المتطيرون.

وكما أن أقرب الناس مني يوم القيامة المتواضعون ، كذلك أبعد الناس مني يوم القيامة المتكبرون .

يا داود : إن العبد من عبادي ليأتيني بالحسنة فأبيحه جنتي .

فقال داود : يا رب وما تلك الحسنة ؟

قال : يُدخل على عبدي المؤمن سرورا ولو بتمرة ..

فقال داود : حق لِمن عرفك أن لا يقطع رجاءه منك .

يا داود اسمع مني ما أقول ، والحق أقول : مَن أتاني وهو يحبني أدخلته الجنة .

يا داود اسمع مني ما أقول ، والحق أقول : مَن أتاني وهو يستحيي من المعاصي التي عصاني بها غفرتها له ، أوأنسيتها حافظيه .

يا داود اسمع مني ما أقول والحق أقول : مَن أتاني بحسنة واحدة أدخلته الجنة . قال داود : يا رب وما هذه الحسنة ؟

قال : مَن فرّج عن عبد كربة من كرب الحياة .

فقال داود : إلهي لذلك لا ينبغي لمن عرفك أن يقطع رجاءه منك .

ويروى أن الله أوحى إليه : أن العباد تحابوا بالألسن ، وتباغضوا بالقلوب، وأظهروا العمل للدنيا وأبطنوا الغش والدغل .

يا داود : اذكرني في أيام سرائك حتى أستجيب لك في أيام ضرائك .

يا داود : احببني ، وحببني إلى خلقي .

قال : يا رب نعم أنا أحبك فكيف أحببك إلى خلقك ؟

قال اذكر أيادي عندهم فإنك إذا ذكرت ذلك لهم أحبوني ...

يا داود بشر المذنبين ، وانذر الصديقين

قال : كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين ؟

قال : يا داود بشر المذنبين إني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب ،

وانذر الصديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك .

يا داود : مَن أحب حبيبا صدق قوله ، ومَن آنس بحبيب قبل قوله ورضي فعله ، ومن وثق بحبيب اعتمد عليه ، ومن اشتاق إلى حبيب جد في السير إليه .

يا داود ذكري للذاكرين ، وجنتي للمطيعين ، وزيارتي للمشتاقين ، وأنا خاصة للمطيعين .

يا داود قل لفلان الجبار : إني لم أبعثك لتجمع الدنيا على الدنيا ، ولكن لترد عني دعوة المظلوم وتنصره، فإني آليت على نفسي أن أنصره وانتصر له ممن ظلم بحضرته ولم ينصره .

يا داود : اشكرني حق شكري .

قال : إلهي كيف أشكرك حق شكرك وشكري إياك نعمة منك ؟

قال : الآن شكرتني حق شكري .

يكمل لقمان مسيره شطر تلك الأراضي التي كان قد زارها من قبل وأقام فيها سبع سنوات .

الآن يتجه إليها كي يرى هذا الرجل الذي وهبه اللّه كل هذه العطاءات الخارقة ، يريد أن ينظر إليه ، يتحدث معه ، وهو الذي قد تحدّث عن حكمة لقمان الحكيم لبعض زوّاره .

يدنو لقمان وحده هذه المرة من تلك الأراضي ، يلتقي الناس ، يسألهم عن النبي والملك والقاضي داود .

يتعرف على آخر واقعة يتحدث بها الناس عن امرأة دخلت إليه

قائلة : يا نبي اللّه أ ربك ظالم أم عادل ؟

فقال داود: ويحك يا امرأة هو العدل الذي لا يجور، ثم قال لها: ما قصتك؟؟

قالت: أنا أرملة ، عندي ثلاث بنات أقوم عليهن من غزل يدي فلما كان أمس ، شدّدت غزلي في خرقة حمراء وأردت أن أذهب إلى السوق لأبيعه وأبلّغ به أطفالي ، فإذا أنا بطائر قد انقض عليّ و أخذ الخرقة والغزل و ذهب ، وبقيت حزينة لاأملك شيئاً أبلّغ به أطفالي . فبينما المرأة مع داود في الكلام ، إذا بالباب يُطرق على داود فأذن له بالدخول ، وإذا بعشرة من التجار كل واحد بيده مائة دينار.

فقالوا : يا نبي اللّه أعطها لمستحقها.

فقال لهم داود: ما كان سبب حملكم هذا المال؟

قالوا : يا نبي اللّه كنا في مركب فهاجت علينا الريح وأشرفنا على الغرق،

فإذا بطائر قد ألقى علينا خرقة حمراء وفيها غزل ، فسدّدنا به عيب المركب فهانت علينا الريح وانسد العيب ونذرنا لله أن يتصدّق كل واحد منا بمائة دينار، وهذا المال بين يديك فتصدق به على مَن أردت .

فالتفت داود إلى المرأة وقال لها: رب يتجر لكِ في البر والبحر وتجعلينه ظالمًا . ثم ناولها الألف دينار وقال : أنفقيها على أطفالك.

يطوف لقمان في الناس ليعلم شيئا جديدا عنه لم يكن يعلمه من قبل، يُقال بأنه رجل شديد الغيرة على نسائه اللواتي يعشن في قصر مسّور لا يستطيع أحد الدنو من أسواره العالية .

عند وصول لقمان المنطقة ، علم الناس بوصوله ، فهرعوا إلى استضافته.

إنه الحكيم الذي لا يقل شهرة عن نبيهم .

يتحدث رجل بلغ من العمر عتيا عن فضل لقمان عليه من خلال ما بلغه من حكمته ، ثم يروي لهم بعض الأمثال التي بلغته على ألسنة سواد الناس عن لقمان فيقول :

قال أسد: مرة خرج عليّ ثوران ، فاجتمعا جميعا ، وكانا ينطحانه بقرونهما، ولا يمكنه الدخول بينهما ، فانفرد بأحدهما ووعده بأن لا يعارضه إن تخلى عن صاحبه ، فلما افترقا افترسهما جميعا .

أيل مرة عطش ، فأتى إلى عين ماء ليشرب ، فنظر خياله في الماء ، فحزن لدقة قوامه وسرّ وابتهج لعظم قرونه وكبره . وفي الحال خرج عليه الصيادون فانهزم منهم . وبينما هو في السهل لحقه الصيادون فلم يدركوه .فلما دخل الجبل وعبر بين الشجر ، لحقه الصيادون فقتلوه .

فقال عند موته : الويل لي أنا المسكين ،الذي ازدريته خلصني ، والذي رجوته أهلكني .

أيل مرة مرض ، فكان أصحابه من الوحوش يأتون إليه ويعودونه ويرعون ما حوله من العشب ، فلما أفاق من مرضه ، التمس شيئا يأكل فلم يجد ، فهلك جوعا .

أسد مرة ، اشتد عليه حرّ الشمس ، فدخل بعض المغاور يتظلل فيها . فلما ربض ، أتى إليه جرذ ومشى فوق ظهره ، فوثب الأسد قائما ، ونظر يمينا ويسارا وهو خائف مرعوب ، فنظر الثعلب وضحك منه . فقال له الأسد : ليس من الجرذ خوفي ، وإنما عظم عليّ احتقاره لي .

أسد مرة : أراد أن يفترس ثورا فلم يجسر عليه لشدة قوته . فمضى إليه ليحتال منه قائلا له: اعلم أني ذبحت خروفا سمينا ، وأشتهي أن تأكل عندي في هذه الليلة خبزا ، فأجابه إلى ذلك ، فلما وصل إلى الموضع ونظر ، فإذا الأسد قد استعد بحطب كثير وخلاقين كبار ، فولى الثور هاربا لما عاين ذلك. فقال له الأسد : لماذا وليت بعد مجيئك إلى هنا ؟

فقال الثور : لأني علمت أن هذا الاستعداد هو لأكثر من خروف .

أسد مرة شاخ وضعف ، ولم يقدر على كسر شيء . فأراد أن يحتال لنفسه في المعيشة ، فتمارض وألقى نفسه في بعض المغاور، فكان كلما أتاه واحد من الوحوش ليعوده ، افترسه داخل المغارة وأكله . فأتى الثعلب عائدا له ووقف على باب المغارة مسلما عليه ، وقائلا له : كيف حالك يا سيد الوحوش ؟

قال له الأسد : لم لا تدخل يا أبا الحصين ؟

قال الثعلب : يا سيدي قد كنت عولت على ذلك ، غير أني أرى آثار أقدام كثيرة قد دخلوا ولا أرى قد خرج منهم واحد .

أسد مرة وإنسان ، تصاحبا على الطريق ، فجعلا يتشاجران بالكلام على القوة وشدة البأس . فجعل الأسد يطنب في شدته وبأسه . فنظر الإنسان إلى حائط ، فرأى صورة رجل وهو يخنق سبعا ، فضحك الإنسان ، فقال

له الأسد : لو أن للسباع مصورين مثل بني آدم ، لما قدر الإنسان أن يخنق سبعا .

أيل مرة ، من خوف الصيادين فرّ إلى مغارة ، فدخلها الأسد وافترسه . فقال في نفسه : الويل لي أنا الشقي ، لأني هربت من الناس فوقعت في يد من هو أشد منهم بأسا .

أيل مرة ، عطش فنزل إلى جب ماء ، فشرب منه بشره . ثم رام الطلوع فلم يستطع ، فنظره الثعلب وقال له : يا أخي قد أسأت في فعلك إذ لم تميز قبل نزولك كيف الطلوع ، وبعد ذلك نزلت .

النسور والأرانب ، وقع بينها الحرب . فمضت الأرانب إلى الثعالب يسومون منهم الحلف والمعاضدة على النسور ، فقالوا لهم : لولا أننا نعرفكم ونعلم من تحاربون لفعلنا ذلك .

أرنب عيّرت اللبوءة قائلة لها : أنا أنتج في كل سنة أولادا كثيرة ، وأنت إنما تلدين في عمرك واحدا أو اثنين .

فقالت اللبوءة : صدقت ، غير أنه إن كان واحدا فهو سبع .

امرأة مرة : كان لها دجاجة تبيض في كل يوم بيضة فضة . فقالت المرأة في نفسها ، إن أنا أكثرت علفها فهي تبيض في كل يوم بيضتين ، فلما أكثرت علفها ، شقت حوصلتها وماتت .

بعوضة وقفت على قرن ثور ، وظنت أنها قد ثقلت عليه .

فقالت له : إن كنت قد ثقلت عليك فأعلمني حتى أطير عنك . فقال لها الثور : يا هذه ، ما أحسست بك وقت نزولك ولا إذا أنت طرت أعلم بك .

إنسان مرة حمل على ظهره حطبا ، فثقل عليه ، فلما ضجر من حملها رمى بها عن كتفه ، ودعا على روحه بالموت . فشخص له الموت قائلا : هوذا

أنا ، لماذا دعوتني ؟

فقال له : دعوتك لترفع هذه الحزمة على كتفي .

إنسان مرة نظر حيتين تتقاتلان وتتناهشان ، وإذا حية قد أتت فأصلحت بينهما . فقال لها الإنسان : لولا أنك أشرّ منهما لما دخلت بينهما .

بستاني مرة كان يسقي البقل ، فقيل له : لماذا البقل البري غير مخدوم ، وهو بهي المنظر ، وهذا الجوي سريع الذبول والعطب ؟

فقال البستاني : لأن البري تربية أمه ، وهذا تربية امرأة أبيه .

إنسان مرة كان له صنم في بيته يعبده ، وكان يذبح له في كل يوم ذبيحة ، فأفنى جميع ما يملك على هذا الصنم . فتراءى له الصنم قائلا : لا تفن مالك بسببي ثم تلومني في الآخرة .

إنسان رأى رجلا أسود وهو واقف في الماء يستحم ، فقال له : يا أخي ، لا تعكر النهر ، فإنك لا تستطيع البياض ولا تقدر عليه .

إنسان كان راكبا فرسا ، وكانت حامل ، وفيما هو في الطريق أنجبت ، فتبع أمه غير بعيد ، ثم وقف وقال لصاحبه : يا سيدي ، هوذا تراني صغيرا ولا أستطيع المشي ، فإن مضيت وتركتني ها هنا ، هلكت ، وإن أنت أخذتني معك ، وربيتني إلى أن أقوى حملتك على ظهري وأوصلتك سريعا إلى حيث تشاء .

إنسان مرة حمل على بهيمة كبشا وعنزا وخنزيرا ، وتوجه إلى المدينة لبيع الجميع ، فأما الكبش والعنز فلم يكونا يضطربان . وأما الخنزير فإنه كان لا يهدأ . فقال له الإنسان : يا أشرّ الوحوش ، لماذا الكبش والعنز بسكوت ولا يضطربان ، وأنت لا تهدأ ولا تستقر ؟ فقال له الخنزير : يا سيدي كل واحد يعلم داء نفسه ، أنا أعلم أن الكبش لصوفه ، والعنز للبنها ، وأنا الشقي لا صوف لي ولا لبن . وأنا متحقق أنه عند وصولي أرسل إلى المجزرة

لا محالة .

سلحفاة وأرنب ، مرة استبقا ، وجعلا الحد بينهما الجبل يستبقان إليه . أما الأرنب فللدلالة على خفة جريه توانى في الطريق ونام . أما السلحفاة فلعلمها بثقل طبيعتها لم تستقر ولم تتوان في الجري فوصلت إلى الجبل عند استيقاظ الأرنب من نومه .

ذباب مرة ، أصابوا جلود بقر تبلّل في النهر ، وليس عندها أحد ، فاتفقوا كلهم على أن يشربوا الماء حتى تنشف الجلود ويأكلوها . فمن كثرة ما شربوا من الماء ، ماتوا ولم يصلوا إلى الجلود .

ذئب مرة ، اختطف خِنّوصاً صغيرا ، وفيما هو ذاهب به ، لقيه أسد ، فأخذه منه فقال الذئب في نفسه : عجيب أن اغتصب شيئا ويثبت معي .

الوز والخطّاف ،اشتركوا في المعيشة ، فكان مرعى الجميع مكانا واحدا . ولما كان ذات يوم أتاهم الصيادون . أما الخطّاف فلأجل خفته طار جميعه وسلم ، وأما الوز فأدركه الصيادون وذبحوه .

العوسج قال يوما لبستاني ، لو كان من يهتم بي وينصبني في وسط البستان ويسقيني ويخدمني ، الملوك يشتهون النظر إلى زهري وثمري ، فأخذه ونصبه في وسط البستان في أجود الأرض ، وكان يسقيه في كل يوم دفعتين . فنشأ وقوي شوكه وتفرعت أغصانه على جميع الشجر التي حوله ، فجفت ، وامتدت عروقه في الأرض ، وامتلأ البستان منه ومن كثرة شوكه ، لم يكن أحد يستطيع أن يتقدم منه .

خنفسة قالت مرة لنحلة العسل : لو أخذتني كي أكون معك ، لعملت العسل مثلك وأكثر .

فأجابتها النحلة إلى ذلك ، فلما لم تقدر على مثل ذلك ، ضربتها النحلة بحمتها ، وفيما هي تموت ، قالت في نفسها : لقد استوجبت ما نالني من

السوء إذ لم يكن لي بصيرة بعمل الزفت ، إنما التمست عمل الشهد .

صبي مرة رمى بنفسه في النهر ، ولم يكن يحسن السباحة فأشرف على الغرق ، فاستعان برجل عابر طريق ، فأقبل إليه وجعل يلومه على نزوله إلى النهر . فقال له الصبي ، يا هذا ، خلصني أولا من الموت وبعد ذلك تلومني.

صبي كان يصيد الجراد ، فنظر عقربا ، فظن أنها جرادة كبيرة ، فمدّ يده ليأخذها ثم فرّ عنها . فقالت له : أما لو كنت قبضتني لكنت تخليت عن صيد الجراد .

حمامة مرة عطشت ، فأقبلت تحوم في طلب الماء . فنظرت على حائط صورة صحفة مملوءة ، فطارت بسرعة وضربت بنفسها تلك الصورة ، فانشقت حوصلتها . فقالت : الويل لي أنا الشقية لأنني أسرعت في طلب الماء وأهلكت روحي .

قط مرة دخل دكان حداد فأصاب المبرد المرمي ، فأقبل يلحسه بلسانه حتى نال منه الدم وهو يبلعه ويظن أنه من المبرد ، إلى أن انشق لسانه وفني.

حداد مرة كان له كلب ، وكان لا يزال نائما ما دام الحداد يكلّ ، فإذا رفع العمل وجلس هو وأصحابه ليأكلوا خبزا ، استيقظ الكلب . فقال الحداد ، كمن يأكل السوء : لأي سبب صوت المراكب التي تزعزع الأرض لا توقظك ، وصوت المضغ الخفي إذا أنت سمعته أيقظك .

كلاب مرة رأوا جلد سبع فأقبلوا عليه ينهشونه ، فنظرهم الثعلب فقال لهم : إما أنه لو كان حيا لرأيتم مخالبه أحدّ من أنيابكم وأطول .

كلب مرة خطف قطعة لحم من المسلخ ونزل يخوض النهر ، فنظر خيالها فرمى بها ، فانحدرت شوحة فأخذتها ، وجعل الكلب يجري في طلب الكبير

فلم يجد شيئا ، فرجع في طلب الذي كان معه فلم يصبها ، فقال : ما أعرف أقلّ رأيا مني ، لأني ضيعت ما كان معي ، وطلبت ما ليس لي .

كلب مرة كان يطرد ذئبا ويفتخر بقوته وخفة جريه وانهزام الذئب بين يديه ، فالتفت إليه الذئب قائلا : لا تظن أن خوفي منك ، وإنما خوفي ممن هو معك يطردني .

كلب مرة كان في دار أصحابه دعوة ، فخرج إلى السوق ، فلقي كلبا آخر فقال له : اعلم أن عندنا اليوم دعوة ، فامض بنا لنقصف اليوم جميعا ، فمضى معه فدخل به إلى المطبخ . فلما نظره الخدام قبض أحدهم على ذنبه ورمى به من الحائط إلى خارج الدار ، فوقع مغميا عليه ، فلما أفاق وانتفض من مصابه فرآه أصحاب له : أين كنت اليوم ؟ فكنت تقصف ؟ فإننا نراك ما خرجت اليوم وندري كيف الطريق .

كلب مرة طرد أرنبا ، فلما أدركه ، قبض عليه وأقبل يعضه بأنيابه فإذا جرى الدم لحسه بلسانه ، فقال له الأرنب : أراك تعضني كأني عدو لك ، ثم تبوسني كأنك صديق لي .

الجوف والرجلان تجادلا فيما بينهما ، أيهما يحمل الجسم . فقالت الرجلان : نحن بقوتنا نحمل الجسم . قال الجوف : أنا إن لم أنل من الطعام شيئا ، فأنتما لا تستطيعان المشي ، فضلا عن أن تحملا شيئا .

الحرّ والريح تجادلا فيما بينهما ، من يقدر أن يجرد الإنسان من ثيابه فاشتدت الريح في الهبوب وعصفت جدا فكان الإنسان إذا اشتدت هبوب الريح لمّ ثيابه والتفّ بها من كل جانب ، ولم تقدر الريح على خلع ثيابه عن جسمه رغم شدة عصفها . فلما أشرقت الشمس وارتفع النهار اشتد الحر وحميت الرمضاء ، خلع الإنسان ثيابه وحملها على عاتقه من شدة الحر .

ديكان مرة اقتتلا ففر أحدهما واختفى من وقته في بعض الأماكن . أما الديك الذي غلب فإنه صعد فوق سطح الدار وجعل يصفق بجناحيه

ويصيح ويفتخر ، فنظر بعض الجوارح ، فانقضّ عليه ولوقته أخذته .

وبينما هو يتحدث بأمثال لقمان لأصحابه جاءهم نبأ يقول بأن لقمان الحكيم موجود في أحد بيوت المنطقة .

نهض الجميع صوب الدار للقاء لقمان وجها لوجه ، فرأوا الناس يتحلقون حوله وهو يتحدث إليهم ، ويجيبهم على ما يثيرون من أسئلة .

قال أحد الحضور : ما الذي توصيني به يا ولي الله ، وأنا شاب أقبل نحو الحياة لتوي .

قال : إن كنت في الصلاة ، فاحفظ قلبك

إن كنت على المائدة ، فاحفظ حلقك

إن كنت في بيت الغير ، فاحفظ عينك

إن كنت بين الخلق ، فاحفظ لسانك

قال الشاب ذاته : أي الخصال شر يا ولي الله

قال : الكفر

قال الشاب : فإذا كانتا اثنتين

قال : الكفر والكبر

قال الشاب : فإذا كانت ثلاثا

قال : الكفر والكبر وقلة الشكر

قال الشاب : فإذا كانت أربع

قال : الكفر والكبر وقلة الشكر والبخل

قال الشاب : فإذا كانت خمسا

قال : الكفر والكبر وقلة الشكر والبخل وسوء الخلق

قال الشاب : فإذا كانت ستا

قال : يا بني ، إذا اجتمعت فيه هذه الخصال ، فهو شقي ، وهو من الله تعالى بريء .

قال شخص آخر : على ماذا ندمت يا حكيم ، وعلى ماذا لم تندم؟

قال : ندمت على الكلام ، ولم أندم على السكوت .

قال رجل آخر : قل لي شيئا أنتفع به يا حكيم

قال : من كان له من نفسه واعظ ، كان له الله عز وجل حافظاً .

قال : وثم ؟

قال : بئر شربت منها ، لاترم فيها حجرا...

قال : وثم؟

قال : عصفور في قدرك خير من ثور في قدر غيرك .

فقال آخر : عظني يا ولي الله موعظة أنتفع بها

قال : لا تطلب من الأمر مدبرا ، ولا ترفض منه مقبلا ، فإن ذلك يقلّ الرأي ، ويزري بالعقل .

قال ذات الرجل : وأي ؟

قال : أمر لا تدري متى يلقاك ، استعد له قبل أن يفاجئك .

قال رجل : هل قلت للناس كل ما تريد من حكمة يا حكيم الزمان ؟

نظر إليه لقمان وقال : أموت وفي نفسي حكمة لم أقلها .

إنني ممتلئ بالخوف عليكم يا أهل الأرض .

قال ذات الرجل : مم تخاف علينا يانور القلب ؟

قال : أخاف عليكم منكم .

ثم أردف يقول : إن ما ألحقه الإنسان بأخيه الإنسان من أذى ، يفوق ما ألحقته به الزلازل ، ويفوق ما ألحقته به وحوش الأرض جميعا .

عليكم أن تحذروا وحوش أنفسكم ، ووحوش بعضكم البعض أكثر مما تحذرون وحوش البراري .

عندما يفتك وحش بإنسان ، فإن حيوانا جاهلاً يكون قد فتك بإنسان في غفلة منه ، أو في موقع وهن ، لكن عندما يفتك إنسان بإنسان ، فإن إنساناً عاقلاً يكون قد فتك بأخيه الإنسان في غفلة منه أو في موضع غدر .

لاشيء غير أن يتذكر الإنسان دائماً بأنه إنسان ، وأن الذي يقف قبالته هو أخ له في الإنسانية مهما كان لونه وعرقه ودينه ، عليه أن يتذكر ذلك ولاينساه حتى وهو في ساحة الحرب ، عليه أن يتذكر أن الذي سيقتله ، ستبكيه أمه ، تبكيه أخته ، تبكيه زوجته ، يبكيه أولاده ، أن هذا الذي سشهر عليه حد السيف إنما هو ابن ، وأخ ، وزوج ، وأب .

ثم أخذ لقمان يتحدث قائلا : مَن يتوكل على الله ويرضى بقدر الله فقد أقام الإيمان ، وأفرغ يده ورجله لكسب الخير .

واعلموا أنه كما ليس بين الكبش والذئب خلة ، كذلك ليس بين البر والفاجر خلة .

ثم اعلموا أن الذل في طاعة الله تعالى أقرب من التعزز بالمعصية ،

ومَن يحب المراء يُشتم ، ومَن يدخل مداخل السوء يُتهم ، ومَن يصاحب قرين السوء لا يسلم ، ومَن لا يملك لسانه يندم .

اعتزلوا أشرار الناس تصلح لكم قلوبكم ، وتسترح أبدانكم ، وتطب

نفوسكم ، واعلموا أن لقاء أهل الخير عمارة القلوب .

أكثروا من ذكر الله عز وجل ، فإن الله ذاكر مَن ذكره .

في الصباح انطلق لقمان يمضي نحو بيت المقدس للقاء داود ، ينظر في الآثار التي تشير إلى قوة حكمه ، يتأمل برج داود الضخم الذي بناه للأسلحة، إنه الرجل الأقوى في هذا العصر ، ويحكى أن قوته سوف تستمر من خلال ابنه سليمان الذي يُقال أن الله أوحى لداود : (ياداود عليك أن تختار خليفة لك من بعدك فقد قضت مشيئتي بأن يلي كل نبي خليفة من آله ، إنها سنتي في خلقي إذ لاأترك أمة سدى دون إمام) .

ويحكى في الناس الذين يلتقيهم لقمان أن داود قد عرض النبأ على إحدى زوجاته فاقترحت عليه أن يكون ابنه الأكبر هو المختار للخلافة . فقال داود لها : إني كذلك أفكر في اختياره خليفة من بعدي .

ولدى محاولة داود إعلان هذا النبأ في الناس هبط إليه الوحي :

(ياداود تمهل في اختيار الإمام والخليفة على عبادي ريثما تتلقى أمري).

لبث الأمر على ما هو عليه إلى أن جاء ذات يوم خصمان يحتكمان إلى النبي داود ، أحدهما صاحب بستان كرمة ، والثاني صاحب أغنام .

صاحب البستان تحدث للنبي داود شارحا الواقعة : يانبي الله ، إن غنم خصمي أتلفت زرع بستاني ، وأكلت عنبي ، فبم تحكم ؟

لم يتسرع داود في الحكم ، فطلب منهما مهلة ريثما يرى الحكم العادل ، وفي أثناء ذلك نزل الوحي عليه : (ياداود استدع أبناءك واقصص عليهم مسألة هذين الرجلين كي تختار للخلافة من يحكم بهذه القضية بالعدل والصواب ، وعلى الآخرين اتباعه وتقديم الطاعة له) .

أحضر داود جميع أبنائه ووضع أمامهم أمر الرجلين طالبا منهم الحكم

العادل لهما .

بعد حديث طويل معهم لم يستطع أحد أن يصل إلى حكم بيّن لهذه القضية، ثم أذن لسليمان وهو أصغر أبنائه ، وآخر ما يتوقع أن يتولى الخلافة ، وهو من زوجته بتشبع التي كانت زوجة أوريا الحثي التي جلبت عليه ثورة الأقاويل.

اتخذ سليمان موقعه المستقر في الجلوس وطرح سؤالا على صاحب الكرمة قائلا : قل يا صاحب الكرمة متى دخلت أغنام خصمك كرمك ؟

قال الرجل : لقد دخلت – سيدي – أثناء الليل وأكلت ما فيه من أعناب .

نظر سليمان إلى صاحب الغنم وقال له : الحكم عليك ياصاحب الغنم .

ولم يكتف بذلك ، بل غدا يشرح مستنده حتى يقنعهما ويقنع الحضور بهذا الحكم قائلا : ما ذاك إلا لأن الغنم ترعى طليقة في النهار ، والناس فيه يحافظون على ما لهم من مزارع وبساتين ، أما في الليل ، فالناس نيام ، وعلى أصحاب الماشية والغنم ألا يسمحوا لها بدخول مزارع الناس وبساتينهم ، أما الآن وقد قضي على محاصيل العنب لهذه السنة ، فيجب أن تعود فوائد الغنم – التي هي في مقابل محاصيل الكرمة – إلى صاحب البستان .

عندذاك تدخل داود قائلا : ولِم لم تحكم يابني بالتعويض على صاحب البستان بغنم يعادل ثمنه ما أتلفَ له من عنب ، أو ليس ذلك ما يحكم به علماء بني إسرائيل .

قال سليمان : بلى إنهم يحكمون مثل هذا الحكم لأن الغنم لم تأكل جذور أشجار الكرمة ، بل ثمارها فقط ، وبقيت أشجار البستان التي ستثمر في العام القابل ، فالخسارة أصابت الثمار لا الأشجار . وعليه فإنني أحكم أن يكون تعويض الخسارة من عوائد الغنم ، لا الغنم نفسه ، ولهذا وجب أن

يكون التعويض من صوفها وما تولده وغير ذلك من العوائد .

عندذاك أوحى اللّه إلى داود : (ياداود الحكم الصحيح هو الذي نطق به سليمان) .

ثم يقول له اللّه : (ياداود لقد أردتَ شيئا ، وأردتُ غيره)

فتراجع داود عن تصميمه في خلافة ابنه الأكبر ، ورضي بما قضى اللّه .

بعد أن يستمع لقمان لهذا الكلام يشرد في كل عبارة ساعات طويلة ، ينظر كيف أن اللّه يشرع للناس أحوالهم المعيشية .

هذا التشريع الإلهي الذي اقترن بوجود الإنسان ، فعندما خلق اللّه الإنسان جعل له شريعة تنظم له منهاج حياته ، هذه الشريعة هي خاصية الإنسان وحده دون سائر المخلوقات ، لكون الإنسان بالمقابل يتمتع بخاصية مختلفة عن خاصية سائر مخلوقات اللّه .

إنه كائن مستقل يعيش في كوكب مستقل يمتلكه ويتصرف به تصرف المالك .

كل ما في هذا الكوكب جعله اللّه في خدمة هذا الملاّك ، إنه سيد الأرض، يتصرف بالذهب والفضة والخيل والأنعام ، يستخرج ما يشاء من البحر، يستخدم الحديد وكل ما في الأرض بحرية سيادية دون أن يكون من حق مخلوق - سواء خُلق قبل الإنسان أوبعده - الاعتراض على ذلك ، لأن اللّه- مالك السموات والأرض ومابينهما - هو الذي ملّك هذا الكوكب لأبناء آدم وحفدته وأورثهم إياه .

ذهب لقمان إلى بيت المقدس للقاء داود الذي يجلس بين الناس ويستمع إليهم .

أجل ، إنه داود الذي يقف لقمان جواره ، داود الذي يتحدث إليه وجها لوجه ، وعينا لعين ، وصوتا لصوت .

ينظر لقمان إلى هيبته ، إلى تواضعه ، إلى أنوار الله في محياه .

يسأله داود : كيف أصبحت ؟

يقول : أصبحت بيد غيري .

شرد داود في إجابته ، فصعق صعقة .

وبدأ الناس يتحدثون ولقمان ساكت لايقول شيئا ، فقال داود : يا لقمان .. ألا تقول كما يقول الناس .

قال : لا خير في الكلام إلا بذكر الله ،

ولا خير في السكوت إلا بالفكرة ...

وإن صاحب الدين إذا فكر فعليه السكينة ...

وشكر فتواضع ...

وقنع فاستغنى ...

ورضي فلم يهتم ...

وخلع الدنيا فنجا من شرورها وشهواتها فصار حرا ،

وتفرد فكفى الأحزان ...

وطرح الحسد فظهرت له المحبة...

وسخت نفسه على كل فان ، فاستكمل العقل نضوجه وأبصر العافية فأمن الندامة ، ولم يخف فلم يخفهم...

ولم يذنب إليهم فسلم منهم ...

فالناس في راحة وهو من نفسه في تعب ...

قال داود : صدقت يا لقمان .

ثم قال : هنيئاً يا لقمان ، أوتيت الحكمة ، ووقيت الفتنة .

* * *



سلسلة إصدارات روافد

١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د.عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير(رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر(أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

د. محمد كمال حسن. ________________

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

د. يحيى وزيري. ________________

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

د. عبد الرحمن الحجي. ________________

١٣- ومنها تتفجر الأنهار(ديوان شعر).

الشاعرة أمينة المريني. ________________

١٤- الطريق... من هنا.

الشيخ محمد الغزالي ________________

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

د. حميد سمير ________________

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

فريد محمد معوض ________________

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

د. محمد بن إبراهيم الحمد ________________

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

د. عودة خليل أبو عودة ________________

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

د. ثرية أقصري ________________

نـهـر متعـــدد.. مـتـجـــدد

هــذا الكتــاب

ليس بوسع الإنسان أن يفعل شيئا دون أن ينير الحب دروب أقدامه ودروب أفئدته ، لن يكون الإنسان قويا إلا إذا أشرق بنور المحبة ، ونور الأخوة الإنسانية ، ليس بوسعه أن يسترد قوته التي خسرها في حروبه الخاسرة ... إلا عندما تكون طاقة التسامح في نفسه أعلى من طاقة العقاب ، عندما يحب بعضه البعض ويحب الآخرين كحبه لبعضه البعض ، عندما ينظر بأن النصر لن يكون بقوة السيوف ...

لن يكون بوسع الإنسان أن يكون قوة عظمى في الأرض إلا إذا كان قبل ذلك محبة عظمى في الأرض ...

قال رجل : هل قلت للناس كل ما تريد من حكمة يا حكيم الزمان ؟

نظر إليه لقمان وقال : أموت وفي نفسي حكمة لم أقلها .

إنني ممتلئ بالخوف عليكم يا أهل الأرض .

قال ذات الرجل : مم تخاف علينا يانور القلب ؟

قال : أخاف عليكم منكم .

ثم أردف يقول : إن ما ألحقه الإنسان بأخيه الإنسان من أذى ، يفوق ما ألحقته به الزلازل ، ويفوق ما ألحقته به وحوش الأرض جميعا...



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

www.islam.gov.kw/thaqafa